الفصل الثانى

ارث يعقـــوب
أو نظام وراثة
الابن الأصـغر

١ ــ آثار وراثة الابن الأصغر عند بنى اسرائيل :

ان الروايات التى تتعلق بشخصية « يعقوب » تعد أكثر اكتمالا من تلك التى تتعلق بشخصية أبيه « اسحق » وجده ابراهيـم • وهى فضلا عن ذلك ، أكثر غنى فى مادتها الفولكلورية ، أى فيما تكشف عنـه من بقايا معتقدات وعادات قديمة • وقد كان من الطبيعى أن تتجمـع فى شدة ، الذكريات والخيالات حول شخصية الجد البطل الذى ينسب اليه بنو اسرائيل سواء من ناحية الاسم أو من ناحية الدم •

ومع ذلك فان شخصية الجد الكبير ، كما تصور فى سفر التكوين ، ليس فيها ما يمتع القارىء الحديث أو يجذبه اليها الا القليل ، كما أنها تتعارض بطريقة غير مستحبة مع الوقار الذى اتسم به جده ابراهيم ، كما تتعـارض مع الورع التـأملى الذى اتسـم به أبوه اسحق • فاذا كان ابراهيم يعد مثالا للشيخ السـامى الذى تميز بالشجاعة والكرم والجلالة واللطف ، فان يعقوب كان مثالا للتاجر السامى اللين الحذق ، والوافر الحيلة ، الذى يحرص على المكسب ، وعلى أن يتم صفقاته لا بالقوة ، بل بالحذق ، دون أن يتردد كثيرا فى اختيار الوسـائل التى يبز بها منافسيه ويتفوق بها عليهم • هذا الجمع غير المرغوب فيه بين

الجشع والمكر ، تكشف عن نفسها فى الحوادث المبكرة فى حيـــاة يعقوب التى دونها سفر التكوين ، أعنى تلك الحيل التى سعى عن طريقهـــا لأن يخدع أخاه الأكبر عيسو ، ويسلب منه حقه فى الارث ، كما يسلبه من بركة أبيه • فقد كان يعقوب وعيسو توامين ، ولكن حيث أن عيســو كان أكبر الأخوين ، فقد كان من حقه وفقا للنظام الشائع ، أن تخـــلع عليه بركة أبيه ، وأن يرثه • أما الوسائل التى سعى يعقوب عن طريقها أن يسلب أخاه الاكبر من حقوقه ، فكانت ببســـاطة مواقف حادة من المؤامرات ، فقد استغل فى بداية الأمر جوع اخيه ، فاشترى منه حقه فى الوراثة مقابل أكلة من الثريـــد ، ثم ارتدى بعد ذلك ملابس أخيـــه واصطنع ملمس جلده الكثيف الشعر ، ثم تظاهر لأبيه الكفيف أنه هـــو عيسو وبذلك اغتصب بركة أبيه التى كان يعنى بها أخوه • حقـــا ان الموقف الثانى من الخديعة التى تمت على الأب الكهل ، لم تكن من صنع يعقوب ، وانما اوحت به اليه أمه « رفقـــة » التى كانت تســـمى قبل زواجها « لبيبة » ، وذلك لكى تختبر مهارتها فى خـــداع زوجها • ومع ذلك ، فان استعداد يعقوب السريع فى تقبل الخدعة ، يبرهن على أنه ما كان يعوقه فى خداعه لأبيه شعور بالود وإنما كان الميل إلى الحيلة السريعة يغلب كل إحساس طيب عنده •

وقد يثير مثل هذا التواطؤ فى مرحلة معينة من التطور الأخـــلاقى بعض الاستهجان ، وقد لا يثير هذا الاحساس على الاطلاق . اللهم بين الذين يعانون منه • فقد يميل الشخص غير المتحيز المعاصر لهذا الفعل ، الى أن يثنى على هذا التواطىء الذى يدل على المهارة والذكاء اللذين مكنا صاحبهما من الانتصار على شـــخصية لا تتسم إلا بالصدق والغباء • واكن بعد أن تغيرت المقاييس الأخلاقية ، فقد أصبح الرأى الجماهيرى يقف فى صف الصادق الغبى ، ويولى ظهـــره لمثل هذا الانسان المـــاهر الحاذق • ذلك أن التجـــربة قد أثبتت أن أى تواطؤ مهما تكن درجة ذكاء صـــاحبه وبعد نظره ، فانه لا يسىء الى الأفراد فحسب ، وانما يسىء

الى المجتمع بوصفه كلا ، وذلك لأنه يخلص رباط الثقة المتبادلة بين الناس ، تلك الثقة التى تربط وحدها بين جماعة الناس فى وحدة واحدة . وبعد أن عرفت هذه الحقيقة بوجه عام ، بدأ المؤرخون يقيمون أعمال الرجال فى العصور الماضية بمقاييس أخلاقية لم يكن يتسنى لهؤلاء الرجال المخادعين أنفسهم أو لمعاصريهم ان يستخدموها فى الحكم على أفعالهم . فاذا وجد الناقد الطيب ان الشخصيات البطولية التى عاشت فى الزمن الماضى تهبط دون هذا المستوى الأخلاقى ، فانه ، بدلا من أن يعترف صراحة بالبون الشاسع الذى أوجده التطور الاخلاقى بينه وبين هذه الشخصيات ، فانه يحاول ان يتغافل هذا ، بالتماس المعاذير لهم ، وادعاء المبررات التى يرفضها هو نفسه بناء على مقاييسه الاخلاقية فالميل الى تبراة الفرد من الاعمال المشائنه ، اذا كان دافعه القلب الطيب وليس الغرور الكاذب فى ادعاء المتناقضات ، يعد عملا جديرا بالاكبار ، وربما كان غير مؤد لغيره ؛ وهو فى ذلك يختلف عن المحاولة الاخرى التى تهدف الى طمس اكثر الشخصيات شهرة ، حيث أن مثل هذا العمل البغيض وان يكون مألوفا ، لا يصيب الشخص البرىء بضربة فى ظهره فحسب ، وانما يسىء الى المجتمع كذلك ، ويهبط بمستواه الأخلاقى ، حيث أنه يسلبه نماذج للفضيلة قلما نعثر عليها . وربما كان التأمل فى هذه النماذج أكثر ملاءمة للانسان الذى يتوق الى مثل الفضيلة ويعجب بها ، من الكثير من الأبحاث التجريدية التى تتحدث عن الفلسفة الأخلاقية .

وفى السنوات المتأخرة أخذ مواطن يدعى « يوسف يعقوب » على عاتقه مهمة الدفاع عن شخصية يعقوب ، فقد حاول أن يزيل تلك الوصمة عن الجد النبيل ، بأن أشار الى أن يعقوب ، وفقا للقانون القديم ، كان أحق بالارث ، بوصفه الابن الأصغر ، وأن الاحتيال الذى لجأ اليه للحصول على مأربه ، وفقا للرواية العبرية ، ليس سوى تفسير خاطىء من قبل المؤرخ لعملية لم يفهمها هذا المؤرخ نفسه .

ولست أود أن أخاطر بالقـول بما اذا كان هذا الاعتذار سليما أم غير سـليم ، ولكن من المؤكد أن مثل هـذا القـانون الوراثى القديم كان ينتشر ، كما افترض هذا المدافع عن يعقوب ، بين كثير من الشعوب . وليس هناك ما يدعـو لأن نفترض انه لم يكن منتشرا فى هـذا الزمن البعيد بين أجداد بنى أسرائيل • وقد عرفت هذه العادة أو القانون . باسم حق الابن الاصغر ، أو حق وراثة الابن الاصغر ، وذلك فى مقابل حق وراثة الابن الاكبر ، لأن الارث يؤول وفقا لهذا القانون ، الى الابن الاصغر بدلا من الابن الاكبر • وفى هذا الفصل أود أن أوضح هذه العادة من خلال الامثلة ، وأن أبحث أصلها •

ولنبدأ بالبحث عن آثار أخرى ممكنـة لحق الابن الاصغر أو حق وراثة الابن الاصغر فى العهد القديم نفسه • وربما كان أول ما يسترعى نظرنا أنه اذا كان يعقوب قد سلب أخاه الاكبر حقه ، فانه لم يفعـل الا ما فعله أبوه اسحق من قبل • ذلك أن اسحق كذلك كان ابنا أصغر ، وكان قد عزل أخاه اسماعيل من حقه فى وراثة أبيهما ابراهيم • وهـذا الذى اتبعه يعقوب فى معاملته لأخيه وأبيه ، اذا كان من المستطاع أن نسميه مبدأ ، يبدو أنه أتبعه بعد ذلك مع أبنائه وأحفاده • فقد قيل لنا : إن يعقوب كان يحب يوسف أكثر من أبنائه الكبار ، « لان يوسف كان ابن شيخوخته » • ولقد أبدى تفضيله ليوسف بطريقة أثارت الحقد فى قلوب اخوته الكبار ، الى درجة أنهم دبروا مؤامرة للقضاء عليه • حقا ان يوسف ، وفقا لرواية التوراة التى بين أيدينا ، لم يكن أصغر أبناء يعقوب ، حيث أن « بنيامين » قد ولد من بعده • ولكن ربما افترضنا أن يوسف كان حقيقة هو الابن الأصغر فى الرواية الاصلية • فالعاطفة القوية التى أبداها نحوه أبوه ، والرداء ذو الألوان المتعددة ، أو بالاحرى الرداء ذو الأكمام الطويلة التى كان يميزه بين أخوته ، ثم تلك المكانـة المرموقة التى تمتع بها بعد هذا كله ، كل هذا يؤيد أن يوسف كان أحب

أبناء يعقوب اليه • ولكننا نجد من ناحية أخرى أن اسم « بنيامين » أصغر أبناء يعقوب معناه « ابن اليمين » • وهذا اللقب الذى يبرز بنيامين بوصفه صاحب الحق الشرعى فى الارث ، تؤيده الرواية المشهورة التى تحكى أن يعقوب عندما كان يبارك حفيديه ، ولدى يوسف فضل متعمدا (١) حفيده الأصغر على الأكبر ، بأن وضع يده اليمنى على رأس حفيده الاصغر « أفرايم » ، ويده اليسرى على رأس حفيده الاكبر « منسى » ، وذلك على الرغم من معارضة أبيهما يوسف الذى قدمها لأبيه فى وضع بحيث يكون الابن الاكبر مقابل اليد اليمنى ، والابن الاصغر مقابل اليد اليسرى • ولكن الشيخ اضطر الى ان يضع يده على صدره فى وضع متقاطع ، حتى تصل يده اليمنى الى رأس حفيده الاصغر ، ويده اليسرى الى رأس حفيده الاكبر • ومن ثم فان الباحث الذى أخذ على عاتقه الدفاع عن يعقوب ، يمكنه أن يقول بحق أن يعقوب كان يتمسك على الأقل فى أثناء حياته ، بمبدأ تفضيل الأبناء الصغار على الكبار ، وأنه كان يغفل هذا المبدأ عندما يجد أنه لا يخدم أغراضه الشخصية •

على أن هناك شواهد أخرى تؤيد هذا المبدأ ، وبتعبير آخر تشهد على أن عادة حق الابن الاصغر القديمة ، أو حقه فى الارث كانت متبعة فى بنى اسرائيل • فنحن نقرأ فى سفر التكوين أن « تامار » ابنة يهوذا أنجبت ولدين توأمين ، أحدهما كان يدعى « فارص » والآخر « زارح » وعلى الرغم من أن « فارص » كان هو الأسبق فى ولادته ، فان هناك رواية غريبة تحكى عن ميلاد الطفلين وتميل الى أن تؤكد أن « فارص »

---

(١) « فلما رأى يوسف ان أباه وضع يده اليمنى على راس افرايم ، ساء ذلك فى عينيه . فأمسك بيد أبيه لينقلها عن رأس افرايم الى رأس منسى . وقال يوسف لأبيه ليس هذا يا أبى ، لأن هذا هو البكر . ضع يمينك على راسه . فأبى أبوه وقال علمت يا بنى علمت . هو ايضا يكون شعبا وهو ايضا يكون كبيرا ، ولكن اخاه الصغير يكون أكبر منه ، ونسله يكون جمهورا من الأمم » .
(سفر الخروج . الاصحاح الثامن والأربعون من آية ١٧ الى ١٩) .

كان حقا . شانه شأن يعقوب واخيه عيسو . اصغر الطفلين وليس أكبرهما كما يظن ذلك بعض الناس . على انه لا يبـــدو من ظاهـــر الرواية أن « فارص » كان هو الاصغر . ولكن هذا يتضح اذا تذكرنا ان «فارص» كان الجد المباشر للملك « داود » وأن « داود » نفســـه كان أصغر أبناء أبيه ، وقد رشحه « صموئيل » عن عمد للملك مفضلا اياه على كل اخوته الكبار . ومن ثم فان هدف حكاية سفر التكوين من ذكر التفاصيل التى قد تبدو غير اساسية فى الحكاية ، ان لم تكن عارضة ، عن ميلاد التوأم، هو فيما يبدو اثبات أن الملك داود لم يكن أصغر أبناء أبيـــه فحسب ، بل ينتسب كذلك الى أحفاد يهوذا ، أصغر التوأمين . وقد أورث داود بدوره الملك من بعده الى أحد أصغر أبنائه وهو سليمان ، وأبعد عن عمد أحد أبنائه الكبار وهو « أدونيا » ، الذى كان قد طالب العرش . واذا اجتمعت معا كل هذه الحقائق ، فقد تثير افتراض أن عادة إرث الابن الاكبر ، أو تفضيل الابن الاكبر على أخوته قد تلت ، عند الاسرائيليين ، عادة حق ارث الابن الأصغر ، او عادة تفضـــيله على أخوته ، بوصفه وريثا لأبيه . وقد يتأكد هذا الفرض اذا رأينا أن عادة مشابهة لهـــذه العادة كانت تنتشر فى بقاع كثيرة من جهات العالم .

٢ ــ حق الابن الأصغر فى الميراث فى أوربا :

ومن بين هذه البلاد التى اتبعت هذه العادة وما تزال تتبعهـــا ، بريطانيا . فما تزال هذه العادة القديمة ، او كانت حتى عهد قريب ، هى القانون المرعى فى كثير من جهات انجلترا . وهذا القانون يعرف باسم Borough English وقد استمد هذا الاسم لتلك العادة من كلمة محلية استخدمت فى محاكمة من المحاكمات تمت فى زمن « إدوارد الثالث » . اذ يبدو من تقرير فى الكتاب السنوى فى الســـنة الاولى من حكم الملك « ادوارد الثالث » أنه كان فى « تونتجهام » اقطاعيتان اسم احدهما Borough English ، والأخرى Borough French وقد كانت المساكن

كلها تؤول فى ظل نظام الاقطاعية الأولى الى أصغر الأبنـــاء ، كمـا كانت تؤول فى ظل نظام الاقطاعية الثانية الى أكبر الابناء • وقد قيل ان نوتنجهام ظلت حتى عام ١٧١٣ م منقســـمة الى الاقطاعيـــة الانجليزية والاقطاعية الفرنسية . وان كل اقطاعية كانت تسير وفقـا لعاداتها • بل ان عادات مشـــابهة لهاتين العادتين ما تزال تنتشر فى الاقاليم المجاورة لهما •

أما عن الأماكن التى كانت ينتشر فيها نظام Borough French أو نظام حق الابن الأصغر فى الارث . فى انجلترا ، فكانت تنتشر على وجه التقريب على طول امتداد الشاطىء السكسونى « واسن » الى الأماكن المجاورة لـــ « سولنت » بما فى ذلك ممتلكات الكونت الجنوبية الشرقية بأسرها • ولكى نكون اكثر دقة . فان هذه العادة كانت اكثر ما تكون انتشارا فى « كنت » و « ساسكس » و « سارى » وفى مجموعة الأقاليم التى كانت تحيط بلندن القديمة • كما أنهـــا كانت أقل انتشارا فى « اسكس » ومملكة « ايست انجيليان » • وقد كانت تنتشر بصفة عامة فى « ساسكس » بالنسبة للأراضى التى تمتـــاز بالالتزام ، تحيث أنها كانت تسمى القانون العام للمقاطعة • أمـــا فى منطقة « ريب لويس » فكانت تنتشر على وجه لتقريب انتشـــارا عاما بحق • وهناك أمثلة قليلة تدل على انتشـــار هذه العـــادة فى « همبشاير » ، ولكن كان هناك جزء كبير من « سومرست » يقـــع فى أقصى الغرب ، وهو عبارة عن مساحة متصلة من الارض ، يخضـــع لعادة قصر الارث على الابن الاصغر • وكانت هذه العادة تقل نسبيا فى « مقاطعة ميدلاند » ، فهى تنتشر فى وحدة ادارية من بين كل وحدتين إداريتين أو ثلاث ، فى حين أنها تنتشر فى أربع من المدن من بين المدن الخمس الدنماركية الكبيرة وهى : « ديربى » و « ســـتامفورد » و « لايكستر » ، و « نوتنجهام » • بالاضـــافة الى بعض المقاطعات المهمة الاخرى مثل « ستافورد » و « جلاوسستر » • ويبدو أن هذه

العادة لم تكن معروفة فى الشمال فى مجموعة المقاطعـــات التى كانت تقع بين « همبر » و « ميرسى » ••

على أن هذه العادة لم تكن مقصورة على الأماكن السكسونية فى انجلترا ، بل كانت تنتشر كذلك فى البلاد الكلتية مثل « كورنوول » و « ديفون » و « ويلز » • وتقضى قوانين « ويلز » القديمة بأنه « اذا تقاسم الأخوة الارث ، فان أصغرهم يملك المسكن وما يتبعـه من أرض ومنشآت وكل منشآت الأسرة ، وثمانية فدادين على وجه التقريب ، كما يملك البلطة والمرجل والمحراث ، اذ أن الأب لا يمكـن أن يمنح هذه الأشياء الثلاثة الا الى أصغر أبنائه • فإذا كانت هذه الأشياء مرهونة ، فانها لا تستبعد من الارث على الاطلاق » • أمـا قانون ويلز فلا ينص فى حق الابن الاصغر فى الارث الا على العقار والأرض ، وهو عندئذ يرث بيتـا مأهولا على الأقـل • فاذا وزعت سائر الممتلكات بين الاخوة ، فلا يتمتع الابن الأصغر بأى استثناء فى ذلك • ويبدو أنه ليست هناك أية شواهد تشير الى انتشار عـادة حق ارث الابن الاصغر فى أى مكان فى اسكتلنده ، ولكنه كان من المألوف فى جزر « شتلاند » ، أن يرث الابن الأصغر ، ذكرا كان أم أنثى ، عند تقسيم التركة ، مسكن الأبوين •

ويبدو أن عادة حق ارث الابن الأصغر كانت مرتبطة فى القانون الانجليزى القديم بسيطرة السادة على ملكية الارض • وقد كتب الى الأستاذ الراحل « ف•و• ويتلاند » حول هذا الموضوع فقال : « أما عن انتشار عادة حق ارث الابن الاصغر ، فقد اطلعت على كثير من شواهدها فى الوثاق التى ترجع الى القرن الثالث عشر • وسـواء أكانت هذه الوثائق مطابقة للحقيقة أم لا ، فانه ينظر اليهـا على الدوام بوصفها شاهدا ، ان لم تكن دليلا قاطعا ، على سيطرة السادة على ملكية الأرض • ويبدو ، وفقا لهذا النظام ، أن مساكن موالى السيد لم تكن تورث على الاطلاق ، ولكن هذا النظام كان يتطلب من

السيد أن يختار أحد أفراد أسرة المستأجر المتوفى ليحل محلـــه ، ولم يكن من الامور غير الطبيعية أن يختار هذا السيد أصغر أبنـــاء المستأجر المتوفى • أما سائر الأخوة فيضربون فى الحياة كما خلقوا فيها ، فى حين يبقى الابن الى جانب أبيه فى بيته ساعة احتضاره • ووفقـــا لكثير من العادات التى تراعى تقسيم التركة بالتساوى بين الأخوة ، يختص الابن الأصغر بوراثة بيت الأسرة وما حوله ، والمدفأة • على أننى لا أدعى بذلك أننى قد توصلت الى اثبات مبدأ العبودية فى نظام حق الابن الأصغر فى الارث ، ولكن من المؤكد أن وراثة الابن الاصغر لأبيه فى الأرض كانت تخضع لنظام العبودية فى القرن الثالث عشر • وفى وسعى أن أقدم أثباتا كافيا على ذلك • وكان هذا المبدأ يرتبط بنظام الاتاوة Merchetum (١) ، اذ كثيرا ما يذكران معا كما هو الحال فى المثال التالى(٢) : « أنتم عبيد أرضى ، فرضت عليـكم الجـزية ، ودفعتم لى الاتاوة فى زواج بناتكم ، وقد كان كل منكم أصغر أبناء أبيه فورثه فى التزامه » •

ومما هو جدير بالذكر ان نظام حق الابن الأصغر فى الارث فى فى انجلترا لا يقتصر على الذكور • فهناك عشرات ، ان لم يكن مئات من الأحياء الصغيرة التى يمتد فيها هذا الحق من الذكور الى الاناث• وفى هذه الحالة تفضل أصغر البنات أو أصغر الأخوات أو الخالات على شريكاتها الأخريات •

وكذلك ينتشر نظام حق الابن الأصغر فى الارث فى بعض جهات فرنسا • « ففى بعض نواحى ممتلكات الكونتات فى « كورنواى » فى

---

(١) كان هذا اسم الاتاوة التى يدفعها الملتزم للسيد الاقطاعى عند تزويجه ابنته .

(٢) من رسالة ف . و . ميتلاند F. W. Maitland بتاريخ ١٨٨٧/١١/١

« بريتانى » ، يتمتع أصغر الأبناء بحق يختص به وحده يساوى الابن الأكبر تماما • فأصغر الأبناء ، ذكرا كان أم أنثى ، يرث الأرض التى تسمى quevaise ، دون اخوته واخواته » • ويعرف هذا الحق فى فرنسا بقانون maineté • وعلى الرغم من أن هذه العادة تنتشر فى المقاطعات الممتدة الكثيرة التى كانت تابعة للأشراف فى « بريتانى » ، فاننا لا نستطيع أن نتعرف بذلك على أصل انتشارها فى فرنسا • ذلك أن المحامين الاقطاعيين عندما كانوا يشرعون العادات فى أقاليم ، كان النبلاء يولون ظهورهم للعادة غير المألوفة لديهم • كما أننا نعلم أن المنطقة التى كانت تنتشر فيها هذه العادة فى القرن السابع عشر كانت تتضاءل يوما بعد يوم على وجه التقريب • أما الأحياء التى كانت تروج فيها تلك العادة ، فكانت تتضمن « دوقية روهان » ، ومقاطعة « بلا كريك » وممتلكات الأديرة فى « ريليك » و « بيجير » • أما فى « بريتانى » كما هو الحال فى كثير من جهات انجلترا فقد كان نظام حق الابن الأصغر فى الارث يتبع نظام ادارة الأرض بالسخرة • واذا توفى الأب فى « بريتانى » كما هو الحال فى انجلترا دون أن يترك أولادا ذكورا ، فان الارث يؤول الى أصغر البنات • وقد كانت تعيش هذه العادة تحت اسم Madelstad mainetė فى « بيكاردى » و « أرتوا » ، « هينو » وفى « يونثيو » ، « فيقير » ، وفى الأحياء التى تقع حول « أراس» و «دواى» و «أميان» و «ليل» و «كاسل» ، وفى الأقاليم المجاورة من «سنت أومير» • ويتفاوت حق ارث الابن الأصغر فى كل هذه الأحياء ، بين أن يرث هذا الابن التركة جميعها ، أو أن يتميز عنهم فقط فى ارث أثاث البيت • وهذا النظام نفسه فى الارث ، ساد كذلك فى « جريمبرجن » فى « برابانت » •

وقد انتشرت مثل هذه العادات فى كثير من جهات « فرفزلاند » • وأشهر هذه العادات ، تلك التى كانت تعرف باسم «جوس ثيلاكتيوم» أو تشريع « أراضى ثيل » ، وهى تلك الاراضى التى كانت مقسمة أو موزعة فى الشمال فى شرق « فرفزلاند » غير بعيد من منبع نهر « أمز »

وقد ظل المزارعون فى هذا الحى حتى القرن التاسع عشر يحتفظون بحصصهم وفق نظام من القوانين المعقدة التى وضعت لتحول دون تجزئة الأراضى ، تلك التجزئة التى لا تعود عليهم بفائدة • فحصة الأرض التى تورث لم تكن تقسم ، وانما يرثها الابن الاصغر كاملة بعد موت أبيه • فاذا مات هذا الاب دون أن يترك وراءه ذرية ، فان هذه الحصة من الارض تصبح ملكا للجماعة •

وهناك أمثلة أخرى لعدة حق ارث الابن الاصغر يمكن ان تستخلص من العادات المحلية التى ألغاها القانون المحلى فى « وستفاليا » وفى بلاد نهر الراين التى كانت تخضع « القانون السكسونى الخالص • وقد قيل لنا ان المزارعين كانوا يتمسكون بتلك « ميندن » ، والتى كان سكانها يدعون أنهم ينتمون الى العنصر السكسونى الخالص • وقد قيل لنا ان الزراعين كانوا يتمسكون بتلك العادة الى درجة « أنه حتى زمن قريب لم يكن يطالب الابن الأكبر بحقه القانونى الالزامى قط ، وانما كان الأبناء يرضون بحق أخيهم الأصغر فى الأرث ، وان لم يترك لهم أى نصيب يرثوه • ولم يكونوا يحلمون قط بالمطالبة بحقوقهم فى ظل قانون الإرث الذى لم يكن قابلا للنقض • وحتى اذا توفى الزارع دون أن ينص على هذه الوصية المألوفة ، فان الأبناء يرضون بعدم مشاركتهم لأخيهم الأصغر فى الارث » • وشبيه بهذه العادة تلك العادة التى ازدهرت فى « سيليزيا » وفى جهات بعينها من « فورتنبرج » ، حيث فشلت قوانين الوراثة الجديدة فى القضاء على الامتياز القديم المقدس للابن الأصغر الذى كانت تراعى حقوقه فى تسوية سرية أو بقوة الرأى المحلى • وهناك فى غابة « أودين فالد » ، وفى الحى الذى لا يزدحم بالسكان ويقع الى الشمال من بحيرة « كونستانس » ، ممتلكات من الأراضى يطلق عليها اسم « هوف جوتر » غير قابلة للتقسيم ، وانما تؤول الى أصغر الأبناء الذكور • فان لم يكن هناك أبناء ذكور آلت الى البنت الكبرى • وهناك أماكن أخرى كثيرة تنتشر فيها عادة حق الابن الأصغر فى الارث • فقد

قيل لنا انها توجد فى سوابيا ، وفى سويسرا ، والالزاس ، وغير ذلك من البلاد الألمانية أو تلك التى يخضع جزء منها للبلاد الألمانية • ففى هذه الأماكن ما تزال هذه العادة لها تأثيرها على المزراعيين على الرغم من أنها فقدت صفتها الشرعية •

وليس هناك دليل على أن هذه العادة كانت منتشرة فى الدانمارك والنرويج والسويد • ولكن الابن الاصغر كان يتمتع بهذا الحق فى جزيرة « بورنهولم » (التى كانت مملكة ذات يوم) وهى جزيرة ملحقة للتاج الدنماركى ، كما أن آثار لهذه العادة قد سجلت فى مقاطعة جمهورية « لوبيك القديمة » •

أما فى جنوب روسيا وغربها ، فان النظام يتجه الآن الى تحطيم وحدة العائلات القديمة عن طريق سكنى الأبناء فى بيوت مستقلة يملكونها • وقد قيل انه ينظر الى الابن الاصغر فى هذه الحالة بوصفه وريثا لمنزل الأسرة • واننى لمدين للسيدة « م•أ•تزابليكا » العالمة الاثنولوجية البولندية المرموقة ، لأنها أمدتنى بالمعلومات الآتية التى قالت فيها : « من المعروف ان حق الابن الأكبر أو الابن الاصغر فى الارث ، كان هو العرف الذى يسير وفقه المزارعون الروس منذ الزمن الذى ظهر فيه التشريع الروسى « روسكايا برافدا » ، وهو التشريع الروسى الأول الذى شرع فى عهد « باروسلاف « الأكبر • بل إن هذا النظام مازال هو السائد فى قانون المزارعين العرفى ، الأمر الذى يجعل من الممكن افتقاء أثر أصل هذا القانون فى نظام الوراثة • ولا يعد حق الابن الأصغر امتيازا وانما هو أمر طبيعى • وذلك نظرا لما يحدث فى الواقع وهو انفصال الأبناء الكبار فى العادة عن منزل أبيهم وعن أسرهم . فى حين أن الابن الصغيرأو الاصغر لا ينفصل عن أبيه قط طالما كان الأب على قيد الحياة • على أنه اذا ورث الابن الصغير ، بالاضافة الى مسكن الاب ، ممتلكات أخرى الامر الذى يضر بأخوته الكبار ، فانه يرث كذلك أعباء بعينها • وتلك

الاعباء هى أن يرعى أبويه العاجزين ، كما يرعى فى الغالب اخـــواته غير المتزوجات • فاذا لم يكن الابناء الكبار قد انفصـــلوا عن منزل أبيهم عند وفاته ، فان منزل الاسرة يؤول كذلك الى الابن الاصغر ، على أن يكون من واجبه أن يساعد أخوته الكبار فى تأســـيس مســـاكن لأنفسهم » • كما أخبرتنى السيدة « تشابليكا » بأنه « ليس هناك أثر لعادة حق الابن الاصغر فى الارث فى غير طبقة المزارعين فى روسيا • ويقتصر الارث فى هذه الحالة على بيت الاسرة وعلى قطعة من الارض التى تملكها الأسرة ، لا تلك التى تملكها الجماعة » •

وبهذا نكون قد ألقينـــا نظرة على انتشـــار عادة حق ارث الابن الأصغر بين الشعوب الآرية فى أوربا • فاذا انتقلنا بعد ذلك الى الشعوب الاوربية التى لا تنتمى الى الأصل الآرى ، فاننا نعرف « أن قانون الضواحى فى هنغاريا يقضى بأن يرث الابن الاصغر بيت الاسرة على أن يعوض الابن الاصغر أخوته عن هذا الامتياز • وعلى الرغم من أن رب الاسرة عند « التشوديين الشـــماليين » يمكن أن ينيب عنه الابن الاكبر أو الاصغر فى ادارة شئونه ، وربما أناب عنه شخصا غريبا اذا شاء ،الا أنه يتحتم عليه أن يورث أصغر أبنائه المسكن الذى يسكن فيه •

٣ ــ مسألة أصل حق الابن الأصغر فى الميراث :

بعد أن قدمنا نماذج لانتشار عادة حق الابن الاصغر فى الارث أو تفضيل الابن الأصغر على اخواته فى الارث ، يحق لنا أن نتساءل : ماذا كان اصل هذه العادة التى تفاجئنا اليوم بغرابتها وباجحافها بحقوق الأبناء ؟ ان الآراء التى تعرضت لهذا الموضوع كثيرة ، ومن الافضل أن نبدأ برأى العالم ورجل القانون « سير وليم بلاكستون » الذى عبـــر عنه فى شروحه الشهيرة للقانون الانجليزى • ففى أثنـــاء حديثه عن عن نظام ملكية الاراضى فى الاقطاعات أو البلاد التى لها حـــق التمثيل فى البرلمان ، وازن بينه وبين نظام ملكية الارض فى ظل النظام

الحربى ، أو خدمة الفروسية ، وعدة من مظاهر بقايا الحرية السكسونية التى أبقى عليها هؤلاء الافراد الذين لم يرهنوا أرضهم ولم يضطروا الى استبدالها ؛ « ذلك أنه كلما كانت ملكية الأراضى أكثر شرفا ،كما كانوا يدعون ذلك، كلما زادت أعباؤها» والحرية السكسونية من وجهة نظره « تشمل أيضا التنوع الكبير فى فى العادات التى تؤثر على نظام الملكية التى تعد أهمها وأبرزها النظام الانجليزى الذى يعرف باسم Borough English تمييزا لها عن العادات النورمندية ، تلك التى أشار اليها « جلانفيل » و « ليتلوتون » وغيرهما وشرحوها ، بأن الابن الاصغر ، لا الأكبر ؛ هو الذى يرث مسكن الأسرة بعد موت أبيه • أما السبب الذى قدمه « ليتلون » لاتباع هذه العادة ، فهوأن الابن الأصغر نظرا لصغر سنه ، لن يكون قادرا على اعالة نفسه كما يفعل اخوته الكبار • وهناك مصادر أخرى قدمت سببا آخر أكثر غرابة بحق ، هو أن سيد الاقطاعية كان فيما يبدو ، من حقه أن يتخذ محظية له فى ليلة زفافه من زوجته الأصلية التى تنتمى الى هذه الاقطاعية • ومن ثم فان مسكن الأسرة لا يؤول الى أكبر الأبناء بل الى أصغرهم الذى يكون انتماؤه الى الاقطاعية أكثر ترجيحا من انتماء الابن الأكبر لها • ولست أعرف أن هذه العادة كانت تنتشر فى انجلترا ، وان كانت قد انتشرت بالفعل فى اسكتلندا (تحت اسم Marcheta أو Mercheta ، حتى قضى عليها « مالكولم الثالث » • وهناك سبب ثالث ربما كان أكثر منطقية من السببين الاولين استخلص من عادات التتار الذين كانت تنتشر بينهم ، وفقا لما ذكره الأب « دوهالدى » عادة حق ارث الابن الاصغر • وقد كان الشعب التترى يتكون أصلا من الرعاة وأصحاب القطعان ، وكان الابناء الكبار يهجرون أباهم ، بمجرد أن يصبحوا قادرين على أن يعيشوا حياة رعوية بمفردهم • وفى هذه الحالة يصحبون معهم عددا من القطعان ويبحثون عن مسكن جديد لهم • أما الابن الاصغر ، الذى يعيش فيما بعد مع أبيه ، فهو يصبح وارث بيت الاسرة بعد موت أبيه ، ويتحمل مسائر الأعباء • وهكذا نرى أن العادة التى كانت متبعة بين كثير من

الشعوب الشمالية هى أن يهجر الابناء جميعا آباءهم فيما عدا الابن الاصغر الذى يصبح وريثه فيما بعد ، بحيث يمكننا أن نستخلص أن هذه العادة ، حيثما وجـدت ، يمكن أن تكون بقايـا النظـام المرعوى لأجدادنا البريطانيين والجرمانيين ، ذلك النظام الذى وصـفه كل من قيصر وتاكيتوس •

على أننى لم أعثر على عبارة « دوهالدى » التى أشار اليهـا « بلاكستون » ، ولكن هذه العبارة يؤكدها مؤرخ محـدث أخبرنا أن « أهم ما يميز القانون القديم الذى كان سائدا بين الاتراك والمغول ، وهو الذى يلقى ضوءا حيا على تاريخهم ، تلك العادة التى سأطلق عليها ، نظرا لاحتياجى الى اصطلاح آخر ، عادة « التبنى المعكوس »• فالعادة المتبعة عند الأتراك فى الارث ، تضع له نظاما على نحو غريب للغاية • فالوريث الدائم الذى يرتبط على نحو ما بتربة وطنـــه هو أصغر الأبنـــاء • وهو الذى يطلق عليه المغول اســـم « أوت ــ ديزيكين » ، كما يطلق عليه الأتراك اسم « تيكين » أى « حارس الدار » • فالى هذا الابن الأصغر يؤول نصيب الأرض الذى لا يتغير، ذلك الذى ذكره المؤرخون الصينيون والرحالة الغربيون • فالأبنـاء الكبار يوزعون فيما بينهم المنقولات وأهمها المال الذى هو القطعان والماشية » • وفضلا عن ذلك كانت عادة حـــق ارث الابن الأصغر مألوفة لدى مجموعة من القبائل المغوليـــة • وربما أدى البحث عن أحوال هذه القبائل الاجتماعية الى القاء الضوء على مشكلة الارث هذه • ولكننى أود أن أشير ، فى بداية هذا البحث الى أنه ليســت هناك قبيلة من هذه القبائل تشتغل بالرعى ، على عكس ما كنا ننتظره وفقا لنظرية « بلاكستون » ، هذا اذا افترضنا أن نظريته صحيحة ، وانما تعتمد هذه القبائل كلية فى معيشـــتها على ما تنتجه الأرض المستغلة •

٤ ــ توريث الابن الأصغر فى آسيا الجنوبية :

ولنبدأ بقبيلة « لوشاى » التى تسكن فى جـــزء كبير من تلال أسام • وأناس هذه القبيلة قصار أشداء أقوياء العضلات ، ذوو وجوه عريضة جرداء من الشعر ، وعظام بارزة فى الصدغين ، وأنوف قصيرة مفلطحة وعيون صغيرة لوزية الشكل ، وبشرة تختلف بين اللون الأصفر والبنى • ومن ثم فان الرائى لا يخطىء أصلهم المغولى • وهذا الدليل الذى يشير اليه مظهرهم الجسمانى ، تؤكده اللغة التى يتحدثون بها ، تلك اللغة التى تنتمى الى فرع « التبت ــ البورمانى » ، وهو أحـد فروع لغة « التبت ــ الصينية » • وهؤلاء القوم مزارعون وغذاؤهم الأساسى هو الأرز • ولكنهم وفقا لنظـــام الزراعة الذى يتبعونه ، اضطروا لأن يكونوا قوما مهاجرين ، اذ قلما يستقرون فى مكان واحد بضعة سنوات • ونظامهم الزراعى يعرفه الكتاب الانجليز فى العادة ، هؤلاء الذين يكتبون عن الهند ، باسم jhuming أو jooming فهم يقطعون أشجار الغابات أو أشجار الخيزران فى مســاحة مــن الغابات أو الأحراش • فاذا جفت أشجار الغابات أو أشجار الخيزران قاموا بحرقها واستخدامها سمادا للأرض • ومن ثم فهم لا يعزقــون الأرض بعد تسبيخها على هذا النحو الا سطحيا • فاذا تجمعت السحب منذرة بأن فصل الجفاف قد أوشك على الانتهاء ، وأن المطر أوشــك على السقوط ، خرج كل فرد منهم يحمل فوق كتفه ســـلة ممتلئــة بالحبوب ، كما يحمل سكينا عريضا (داو) فى يده • فاذا اســـتعد الجميع على هذا النحو ، أخذوا يبذرون الحب بأن يشــقوا الأرض بسكاكينهم شقوقا سطحيا يبذرون فيها الحب • ومحصولهم الرئيسى هو الأرز ، ولكنهم يزرعون كذلك البقول والدخان والذرة والدخــن والقطن • وهذه الطريقة فى الزراعة مضياعة للمحصول ، حيث أنهــم قلما يحصلون على محصولين من قطعة واحدة من الأرض فى ســـنين متتالية • وعنــد ذاك تترك الأرض بورا حتى تكتسى بالأحراش أو الشجيرات النامية مرة أخرى • فاذا كانت الأرض التى كانوا قد أزلوا

عنها الأشجار جزءا من حراش الخيزان ، فأنه يتحتم مرور ثلاث أو أربع سنوات قبل أن تصبح الأرض ملائمة للزراعة • أما اذا كانوا قد أزالوا أشجار غابة فإنه ينبغى أن تمر فترة تتراوح بين سبع وعشر سنوات قبل أن تتكرر عملية قطع الأشجار مرة أخرى • ويقال ان أرض الغابة تدر محصولا أوفر من أرض الأحراش ، ولكنها تتطلب جهدا أكبر فى ازالة الأشجار منها وتطهيرها من الأعشاب الضارة بالزرع • وبهذه الطريقة تستنفد بمرور الوقت ، الأراضى الصالحة للزراعة التى تحيط بقرية كبيرة ، ويصبح من الضرورى أن يبحث السكان عن مكان آخر يستوطنونه • واختيار مكان جديد أمر يثير قلقهم ، فهم يرسلون مندوبين عنهم من شيوخهم ليناموا فى المكان الذى يقع عليه الاختيار ، ويأخذون معهم ديكا يتكهنون عن طريقه فيما اذا كانوا يستقرون فى هذا المكان أم لا ، فاذا صاح الديك قبل الفجر بساعة ، فانهم يتفاءلون بذلك ويستقرون فى هذا المكان القرية الجديدة مدة أربع أو خمس سنوات • وقد كان من الممكن فى الزمن القديم أن تبعد القرية الجديدة عن القرية القديمة بمسافة تستغرق يومين أو ثلاثة أيام • وكان يتحتم على المواطنين أن يحملوا على ظهورهم أمتعتهم الدنيوية من مكان لآخر ، وكان من الطبيعى أن يحول التوقع المستمر للانتقال المضنى دون زيادة منقولاتهم ، وبالتالى كان يحول دون نمو ثروتهم وتجارتهم • كما كان من الطبيعى فى ظل هذا النظام للزراعة المتناوبة ، ذلك النظام الذى تألفه أغلب القبائل التى تسكن تلال هذه المنطقة ، ألا يطالب الزراعون بملكيتهم للأرض ، بل ان زعماءهم لم يكونوا يطالبون بحق فى ملكية الارض أو الغابات ، ولم يكن للزعيم سلطان سوى بين رجال قبيلته أينما ساروا وحيثما استقروا استقرارهم المؤقت • ويقوم العبيد بين القبائل الأكثر بدائية بالجانب الأكبر من استصلاح الأرض وزراعيتها • وهؤلاء العبيد تأسرهم القبائل فى غاراتها حتى يقوموا بدلا منهم بهذا العمل المهين •

وقد كانت قرى « اللوشاى » تقع فى الغالب على قمم سلاسل التلال وتمتد على جوانبها المنحدرة • وهى فى الغـــالب قرى كبيرة تتألف من مئات البيوت • على أن حاجة الأهلى الى التجمع فى قرى كبيرة حصينة قد انقضت نظرا لمـا كفلته لهم الحكومة البريطانية من حماية ونظام للملكية ، ومن ثم أخذ يتضـــاءل حجم القرى الكبيرة تدريجيا ، كما أخذ السكان يتفرقون فى شكل قرى صغيرة ، بل بيوت منعزلة بين الأحراش ، بعيدة عن الأماكن الآهلة • ومن أبرز الملامح فى قرية « اللوشاى » هو « الزولبوك » أو الفناء الذى ينـــام فيه الرجال غير المتزوجين ، والغلمان ابتداء من سن النضوج • ذلك لأن هؤلاء لا يسمح لهم بالنوم فى بيوت آبائهم • كما يأوى المسافرون من القرى الاخرى كذلك الى هذه الاغنية التى تتعدد فى القرية الواحدة الكبيرة • وهذا النظـام مألوف بين القرى التى تسكن التـــلال فى « أسام » •

وكل قرية من قرى « اللوشاى » تعد دولة مستقلة يحكمهـــا زعيمها • وعندما يكبر كل ابن من أبناء زعيم من الزعماء ويصل الى سن الزواج ، يزوده أبوه بزوجة ويقوم بتكاليف الزواج ، كما يمده بعدد معين من أفراد اسرته يرحل بهم لكى يؤسس معهم قرية تكون ملكا له • وهناك يحكم بوصفه زعيما مستقلا ، ويعتمد نجاحه أو فشله فى سياسة قريته على موهبته فى الحكم • وهو لا يدفع جزية لأبيه ، ولكن أباه يتوقع منه أن يساعده فى نزاعه مع جيرانه من الزعماء • فاذا عمر الآباء طويلا ، لم يكن من غير الطبيعى أن يتبرأ الابناء حتى من هذا القدر القليل من تبعيتهم لآبائهم • أما الابن الاصغر فقد كان يبقى فى قرية أبيه ويرثها من بعده كما يرث سائر ممتلكاته • وهكذا نجد أن عادة « اللوشاى » هذه تؤكد فى قوة ، تفسير « بلاكستون » النظرى لنظام حق الابن الأصغر فى الارث • ذلك أنه يبدو أن الابن الأصغر بين هؤلاء القوم يرث أباه لأنه ببساطة كان يبقى مع أبيه فى مسكنه بعد أن يهجره الأبناء الكبار ويخرجون الى الحيـــاة بحثا عن مساكن جديدة لهم • فاذا شئنا أن نستعين بمزيد من الأمثلة لتأكيـــد

الرأي فاننا نجدها فيما اعترى هذه القبيلة من تغيير فى العصر الحديث فنحن نقرأ فى آخر تعداد فى أسام « أن تضاءل حجم القرى عند « الوشاى » قد أدى الى تغيير على جانب كبير من الأهمية فى عادة حق الابن الأصغر فى وراثة قرية أبيه وممتلكاته • فقد كان المبرر لهذا النظام القديم فى الارث هو أن الأبناء الكبار كانوا يستقلون بقراهم عند زواجهم • ولكى يكون هذا الأمر ميسرا لهم ، فان عددا من كبار رجالهم (أوباس) وعددا من عامة الناس يؤمرون بأن يرافقوا الزعيم الشاب لكى يكونوا معه نواة لقرية جديدة • وليس غريبا عندما يستقر الأباء الكبار على هذا النحو ، أن يرث الابن الأصغر قرية أبيه وممتلكاته وأن تقع عليه مسئولية حماية والدته • ولكن بينما نجد أن عدد أسرات الزعماء لم يكن يميل الى الانخفاض ، فان متوسط حجم القرى كان يتضاءل الى النصف ، كما لم يكن هناك بيوت تكفى لايواء الأبناء جميعا• وبناء على ذلك فلم يكن أحد من الآباء يتمكن بحق ، من الاستقلال فى قرية جديدة • ومن الواضح فى مثل هذه الحالة أن تؤول التركة الى الابن الأكبر ، وقد قبل الناس عن رضى هذا التغير فى نظام الارث » •

وبناء على ذلك فانه يبدو لنا أن عادة حق ارث الابن الاصغر عند هؤلاء الناس تتحول الى عادة حق ارث الابن الأكبر ، لأن الدوافع الاجتماعية التى تطلبت تبنى النظام الاول ، أصبحت فى سبيلها الى الاختفاء • حقا ان قانون الوراثة كان يطبق الى حد بعيد بين أسر الزعماء فقط ، ولكن هذا القانون نفسه كان يسود كذلك بالنسبة لوراثة الملكية الخاصة بين عامة الناس • فوفقا لاحدى الروايات « ان الارث يقسم بين الأبناء على أن يختص الابن الأصغر بأكبر الأنصبة ، فى حين يحصل سائر الأبناء على أنصبتهم بالتساوى » • ووفقا لرواية أخرى متأخرة عن الرواية السابقة ، « أن القاعدة العامة أن يختص أصغر الأبناء بالأرض ، ولكن الأكبر يطالب فى بعض الاحيان بنصيبه فى الارث » • والسبب فى تطبيق هذه العادة بين أسر عامة الناس هو

فيما يبدو السبب فى تطبيقها فى أسر الزعمـــاء • فقـــد رأينـا أنه عندما كان يستقل ابن الزعيم ويخرج الى الحياة ليبحث له عن قرية جديدة ، فانه كان يأخذ معه عددا من عامة الناس لكى يكونوا تابعين له فى مكانهم الجديد • ويحق لنا أن نفترض أن سكان المستعمرات يتألفون من كبار أبناء الأسر ، لأن صغار الأبناء يظلون مع أبائهم فى مســكن الاسرة ويرثون ممتلكات الأسرة •

وتنتشر عادة حق ارث الأصغر فى شكل محدود بين « الانجامين » وهم قبيلة مغولية تسكن فى « أسام » • « فاذا تزوج الأبناء فى حياة أبيهم فانهم يتسلمون أنصبتهم من الأرض التى يملكها أبوهم • فاذا توفى الأب تاركا عددا من الأبناء غير متزوجين ، فان هؤلاء يقتسمون الارث بينهم بالتساوى • وعندما يتزوج هؤلاء فانهم يتركون بيت أبيهم ويبنون مساكن خاصة بهم • ومن ثم فان الابن الاصغر يرث فى العادة دائما بيت الأسرة » • وهنا نلاحظ مرة أخرى أن وراثة الابن الأصغر لبيت الأسرة تعتمد ببساطة على ظروف بقائه فى بيت أبيه ، بعـد أن يتزوج أخوته الكبار ويستقلون بمساكنهم • فاذا حدث أن الأبناء كانوا لا يزالون فى بيت الأسرة قبل شروعهم فى الزواج حين وفاة الأب ، فان الابن الاصغر لا يفضل عندئذ فى الارث عند أخوته الكبار •

ومما هو جدير بالذكر أن قبيلة « الأنجامين » التى تعد أكبر قبائل « ناجا » فى « أسام » ليست قبيلة مهاجرة ، كما أنها لاتفلح الأرض بالطريقة البدائية المضياعة التى تتبعها معظم القبائل التى تسكن تلال هذه المنطقة ، أعنى عن طريق ازالة الأشجار والشجيرات من رقعـة من الغابات أو الأحراش ، ثم زراعتها لبضع سنين ثم تركها لتعـود الى طبيعتها البرية التى كانت عليه من قبل ، وانما تقوم هذه القبيلة على عكس هذا بزراعة محاصيلها فى مدرجات دائمة تنحتها بمهارة على على جوانب التلال • وتروى هذه المدرجات عن طريق قنوات صناعية تحفر على طول انحدرات التلال بميل تدريجى مريح • كما أن هـذه القبيلة تقطن قراها الحصينة الكبيرة على الدوام ، ذلك لأن أفرادهـا يرتبطون بمساكنهم كل الارتباط ويرفضون تغييرها •

ويرجع « المايثيون » الذين يكونون العنصر المسيطر فى « مانيبور » فى « أسام » الى أصل مغولى ، وهم يتحدثون لغة « التبت البورمية »• وعلى الرغم من أن هؤلاء يرتبطون بالقبائل المتوحشة التى تسكن التلال المحيطة بهم برباط الدم واللغة ، الا أنهم قد وصلوا الى درجة كبيرة من الحضارة الاجتماعية ، بحيث أصبحوا أشبه بواحة فريدة يعيش الناس فيها حياة حضارية نسبيا ، وفى ظل مجتمع منظم وسط قفار من الأحوال المتبربرة ، فهم يقيمون فى قرى مستقرة ويعيشون أساسا على الأرز الذى يزرعونه فى حقولهم الدائمة • ومعنى هذا أنهم قد تجاوزوا مرحلة الهجرات الموسمية ، تلك التى يسببها ما وصلت اليه الأرض المجاورة لهم من انهاك • أما بالنسبة لقانون الوراثة المنتشر بين المائيين ، فان مؤرخى « مينيبور » لم يمدونا بمعلومات كافية تؤكد نظام الوراثة فى الممتلكات الخاصة ، كما أن أحوال الدولة الاقتصادية فى العصر الحاضر تقع فى اطراد سريع تحت تأثير الأفكار السياسية والاجتماعية الحديثة• فالأرض ينظر اليها على أنها تخضع لارادة القوة الحاكمة فى الدولة • أما بالنسبة للممتلكات المنقولة فانها تؤول فيما يبدو ، وفقا للعرف الشائع ، الى الأبناء فى أثناء حياة أبيهم • كما أن هذا العرف ينظر الى الابن الأصغر بوصفه الوارث بصفة عامة ، اذا كان مازال يعيش فى منزل أبيه عند وفاة أبيه • فاذا كان قد انفصل عن بيت الأسرة حين وفاةالاب تقسم التركة عندئذ بالتساوى بين الأبناء • وينفصل الأبناء عن بيت الأسرة بسبب زواجهم بطبيعة الحال ، وهذه هى المناسبة التى يتعين على الآباء أن يزودوا أبناءهم وبناتهم بالعون فى حياتهم الجديدة» ويعتمد حق وراثة الابن الأصغر لأبيه عند « المايثيانيين » وبالمثل عند « الانجاميين » سكان أسام ، على ما اذا كان هذا الابن مازال يعيش فى بيت الأسرة بعد أن انفصل عنه اخوته جميعا بسبب زواجهم ، وبحثوا لهم عن مساكن مستقلة • أما اذا كان الابن الأصغر قد تزوج واستقل بمعيشته حين وفاة والده ، فانه عندئذ لا يميز عن اخوته فى الارث ، وانما يقتسم معهم التركة بالتساوى ، وتعيش عادة حق ارث الابن الأصغر فى شكل محدود فى « أسام » و « انجلترا » بعد أن كف

الشعب عن الهجرة ، واستقر فى قرى دائمة تحيط بها الحقول ، وتظل على هذا النحو جيلا بعد جيل •

و « الكاشينيون » أو كما يسمون أنفسهم « الشينجبويون » أو « السينجفويون » يرجعون الى أصل مغولى ويسكنون شمال أعالى بورما • وقد كانت مساكنهم القديمة تقع عند أعالى نهر « أراوادى » ، ولكنهم انتشروا شرقا فى الأقاليم الصينية فى يونان وغربا فى الاقاليم الهندية فى «أسام» • واسم « شينجبو » أو « سينجغوا » الذى يسمون به أنفسهم يعنى ببساطة « الرجال » • أما « البورميون » فيطلقون عليهم اسم « الكشينيين » أو « انكاخينيين » • وهؤلاء سكان جبال متوحشون وهمجيون وينقسمون الى عدد من الجماعات الصغيرة أو الى عدد من القبائل ليست بذات شأن ، وكل قبيلة يحكمها زعيم وقد كان « الروميون » و « الشانيون » ، الاكثر مسالمة منهم يخشون غاراتهم قبل عهدهم بالاستعمار الانجليزى • ومع ذلك فهم يشتغلون بزراعة الأرض ، بل انهم خبراء فى فلاحتها • وغالبا ما تقع حقولهم فى أعماق الوديان ، بينما تقع قراهم فوق التلال • وليس هناك شك كبير فيما يقال ، فى أن « الكاشينيين » ينتمون الى الأصل التتارى • ويشير تراثهم الى موطنهم الأول الذى يقع فى مكان ما جنوب صحرا «جوبى»، كما كانت تحركاتهم تتجه دائما الى الجنوب • ولكن اختلاف لون بشرتهم وملامحهم اللذين نلمسهما حتى فى الأماكن التى لم تتأثر قط بالتأثير « الشانى » و « البورمى » ، يشير الى اختلاطهم بالأجناس الأصيلة التى حل محلها « الكاشانيون » •

وقانون الوراثة عند « الكاشينيين » ، كما ينص على ذلك فى كثير من الأحيان ، يربط بين عادتى حق ارث الابن الأكبر وحق ارث الابن الاصغر • ذلك أنه يروى « أن التركة تقسم بين أكبر الأبناء وأصغرهم • بينما يترك الأبناء المتوسطون لمصيرهم • ويرث الابن الأكبر لقب الأسرة واقطاعيتها ، فى حين يعمل الابن الأصغر الممتلكات الشخصية والمنقولات ويذهب ليبحث لنفسه عن مسكن جديد » • ووفقا لهذه

الرواية التى أكدها الكتاب المحدثون الذين تركزت أبحاثهم حول « الكاشانيين » ، فان الابن الأكبر يبقى فى بيت أبيه مالكا لاقطاعية أبيه ، فى حين يأخذ الابن الاصغر الممتلكات الشخصية ويخرج من بيت أبيه ليشق طريقه فى الحياة • وهذا يختلف تماما عما يتبع ، فيما روى، بين أقربائهم من القبائل المنغولية التى تسكن هذه المنطقة • ويحق لنا أن نتشكك فى أن تلك الرواية التى يرجح أن القائد « ح•ب• نويفيللى » قد رواها ، أساسها الفهم الخاطىء • وعلى كل فقد قدم لنا « سير جورج سكوت » الذى كانت لديه الوسائل الوافرة للتعرف الوثيق على العادات الكشانية ، رواية عن قانون الارث عند هؤلاء الناس • فهو يقول : « لقد كان هناك ميل دائم بين الكاشانيين الى التفرق ، كما هو الحال بين « التاينيين » ، كما أن الطابع التلالى لبلادهم جعل الأنصبة من الاراضى المقسمة ضئيلة للغاية • وقد كان هذا التفريق يرجع فى العصور القديمة أساسا وبدون شك الى ضرورة الهجرة التى تسببت عن زيادة عدد السكان والنظام المتلاف لزراعة التلال • فقد أصبحت العادة أن يرث الابن الاصغر أباه الزعيم عند موته ، بينما يخرج الأبناء الكبار مصطحبين أكبر عدد من الأتباع ليقيموا لأنفسهم مساكن جديدة • فاذا قدر لهم النجاح فى موطنهم الجديد ، فانهم يصبحون على مر الزمن قبائل بارزة تسمى كل منها باسم ــ مؤسسها • فالقانون « الكنتى » للاقطاعيات الانجليزية يعد بدون شك بقايا عادة مشابهة تنتشر بين القبائل « الأنجلو » •

وفى مكان آخر يقدم لنا « جورج سكوت » رواية قيمة عن نظم الملكية المختلفة ، تلك النظم التى تتصل بالملكية الفردية والجماعية وتنتشر بصفة خاصة فى التلال والوديان • ويقوم الاختلاف فى هذه الملكية على أساس الاختلاف بين نظم زراعة المهاجرين ونظم الزراعة الدائمة التى تتبع فى التلال والوديان • يقول « جورج سكوت » : « فيمايختص بنظام زراعة التلال أو « تاونجيا » ، فان نظام الملكية الفردية لا يعرف فى هذه الاماكن وانما تعد الارض ملكا للجماعة كما يصرح بهذا زعيمها

(دووا) • كما أن نظام الزراعة لا يسمح باستغلال قطعة واحدة من الارض استغلالا دائمـــا • ولكن الأمر يختلف حيث تكون الأرض ممتلكة فى الوديان بحيث يزرع الارز فى الجو الرطب • ففى هذه الحالة يسمح للمالك الفرد أن يملك الأرض علىأساس ألا يسلم الأرض لغريب• ويحصل الزعيم (دووا) على سلة أو سلتين مملوءتين بالأرز كل عام رمزا للاعتراف بملكيته الاسمية للأرض جميعا • والأرض تتبع أهل البيت جميعا ، كما أنها تستغل فى العادة لصالح الجميع • ومن ثم يفقد حق المشاركة فى الأرض من يترك بيت الأسرة • فذا حدث انفصال اضطرارى بين أهل البيت ، فان قسمة التركة لا تتبع نظاما محددا فيما عدا أن الابن الاصغر يحصل على نصيب « بنيامين » ، كما يرث بيت أجاده وملحقـــاته » •

ويبدو أن هذه الرواية تميز فى وضوح بين الاراضى المرتفعة حيث الزراعة تتبع نظام الهجرة ، والاراضى المنخفضة حيث الزراعة دائمة • فالارز يزرع فى التلال وفق النظام الجاف ، أما فى الوديـــان فيزرع بطريقة الرى الغزير • ولا يعد الارتباط بين نظامالزراعة الجاف وزراعة الهجرة من ناحية ، وبين نظام الزراعة الذى يحتاج الى الرى والزراعة الدائمة من ناحية أخرى من قبيل الصدفة • اذ بينما نجد النظام الجاف مناسب للإقامة المؤقتة فى الأرض ، فان نظام الرى يعد من ضرورات الاقامة الدائمة • ففى « جاوة » على سبيل المثال ، حيث كان الأرز يزرع فى منحدرات مرتفعة ويروى ريا صناعيا ، نجد أن الأرض كانت تغل محصولين فى كل عام وذلك وفقا لذاكرة الأحياء • فالشىء الواضح اذن ، أن الأراضى التى تزرع زراعة مؤقتة عند « الكاشانيين » هى ملك للجماعة ، فى حين أن الأراضى التى تزرع زراعة دائمة هى ملك للأفراد • وقد سبق أن رأينا أنه ليست هناك ملكية فردية بين « اللوسهانيين » الذين يتبعون نظام الزراعة المؤقتة •

والسبب فى هذا واضح ، فالاقامة الدائمة فى الأرض تتطلب أساسا نظام الملكية الفردية ، ولا تلائمها الملكية الجماعية أو القبلية • وحيث

أن الثابت فى تاريخ الانسانية ، أن حياة الصيادين وأصحاب قطعان الماشية ، وحياة الزراعين المتنقلين قد سبقت حياة الزراعة المستقلة التى ازدهرت فى ظل النظم الأكثر تقدما لفلاحة الأرض ، فانه يتبع هذا فيما يبدو ، أن الملكية الفردية للأرض كانت فيما بعد أكثر انتشارا من الملكيةالجماعية أو القبلية ، وأن هذه الملكية الفردية لا يقرها القانون الا اذا زرعت الأرض على الدوام • أى أن الملكية الجماعية ، باختصار أقدم من الملكية الفردية ، وأن تحول نظام ملكية الأرض من الملكية الجماعية الى الملكية الفردية ، قد ارتبط بتقدم طرق فلاحة الأرض الى حد كبير ، ذلك التقدم الذى يسهم بقوة فى تطور المجتمع بوجه عام ، شأنه شأن كل وسائل التقدم الاجتماعى •

ويمارس الكاشانيون فى الصين وكذلك اخوانهم فى « بورما » كلا من نظام الزراعة المؤقتة والزراعة الدائمة • واذا ألقينا نظرة على بلادهم من فوق قمة جبل شاهق ، فاننا نجد بلادهم تمتد من كل جانب فى حدود ما تصل اليه العين ، وكأنها بحر من التلال التى تكسو الغابات قممها ومنحدراتها على وجه العموم ، اللهم الا فى بعض الأجزاء التى تشير الى مواقع القرى ، أو حيث تخترقها الأنهار خلال واد ضيق متجه الى أسفل • وتقع القرى على الدوام بالقرب من مجرى مائى دائم يقع على الجبال وفى الغالب فى وهدة محمية • وقد تنتشر هذه القرى بحظائرها على المنحدر المعتدل فى انحداره ، وتغطى مساحة من الأرض تبلغ الميل • وتبنى البيوت التى تتجه فى العادة شرقا وفق نظام واحد ، فهى تبنى من عيدان البامبو ويتراوح طولها بين مائة وخمسين قدما ومائتى قدم ، كما يتراوح عرضها بين أربعين وخمسين قدما • ويحتفظ بالحجرة الأولى فى كل مسكن جماعى من هذه المساكن الكبيرة لاستقبال الغرباء ، أما سائر الحجرات فتكون مساكن لأسر متعددة ترتبط بين بعضها بعضا برباط الدم أو الزواج اللذين يكونان المجتمع الأسرى • أما الأفاريز البارزة التى ترتكز على أعمدة فتكون شرفات يعمل فيها الرجال والنساء أو يستريحون فيها بالنهار ، كما يبيت فيها الجاموس والبغال والخنزير والخيل والدجاج •

والى جوار المنازل توجد حظائر مسيجة تزرع فيها النيلة ذات الزهور البيضاء ، ونبات الخشخاش والملوخ • أما الأرز والذرة فيزرعان فى المنحدرات المتاخمة والروبى التى تسوى بعناية فى هيئة شرفات مكونة فى الغالب شكل مدرج • ويحجز المجرى المائى عند أعلى مكان يقع فيه المجرى ، ثم يوجه مجراه بحيث يروى هذه الشرفات ، وبعد ذلك يتجه الى أسفل حيث يصب فى حوضه الذى يقع فى الوادى • وفى بعض الأحيان تترك المياه تتدفق فى قنوات البامبو لتروى حقول الأرز والبيوت النائية • وفى كل عام تقطع أشجار الغابات التى تنمو على جوانب التل وتحرق • ومن الممكن رؤية ممرات مهملة تقع بالقرب من كل قرية ، كانت قد أزيلت منها الأشجار وأصبحت تجرى فيها قنوات مائية صغيرة • وتستخدم الفئوس فى قطع الأشجار ، كما تستخدم المحاريث الخشبية فى زراعة الشرفات • ويخشى هؤلاء المزارعون الأجلاف المطر الغزير أشد من خشيتهم من الجفاف • ولكن طبيعة الأرض الخصبة فى العموم تعوضهم بكميات وافرة من الأرز والذرة والقطن والدخان • وبجوار القرى توجد البساتين التى تزرع فيها أشجار الخوخ والرمان الجوافة ، كما تمتلأ الغابات بأشجار جوز الهند والبرقوق والكرز ، وأنواع متعددة من شجر التوت البرى • وفى المنحدرات الأكثر ارتفاعا تزدهر أشجار البلوط والبتولا ، كما تغطى أشجار « سيناموموم كوادتوم » و « س • كاسيا » مساحات كبيرة ، ومنها يستخلص الزيت الذى يعرف بزيت القرفة • وتقطع مئات من هذه الأشجار لتهيئة الأرض للزراعة ، وتحرق جذوعها وفروعها حيث تهوى على الأرض •

ويتضح الأصل المغولى لهؤلاء « الكاشينيين الصينيين » من ملامحهم الطبيعية وان كانوا ينقسمون الى نمطين • والملامح العامة للنمط السائد فيهما هى الوجه القصير المستدير والجبهة المنخفضة وعظام الخدود البارزة والأنف العريض والشفاه البارزة الغليظة والذقن المستدير العريض والعينان الوزيتان المتباعدتان • ويخفف من قبح

هذه الملامح تلك البشاشة التى تشيع فى وجوههم • أما لون الشعر والعينين فهو فى الغالب اللون البنى الداكن ، كما أن لون البشرة هو الأصفر المغبر • أما ملامح النمط الثانى فهى أكثر رقة ، وهى تذكر بملامح وجوه نساء « الكاشاريين » و « الليبشا » فى « سيخيم » • وأهم ما يميز هذا الوجه تلك العينان اللوزيتان والوجه الذى يميل الى الطول أو هو بالأحرى يميل الى الشكل البيضاوى المفرطح • ومن ملامحه كذلك الذقن المدببة والأنف الأقنى والخدود ذات العظام الناتئة • أما لون البشرة فأبيض ، وهو فى بعض الحالات يشبه لون بشرة الأوربيين • وربما كان أصحاب هذا النمط خليطا من الدم « الشانى » و « البورمى » • ويميل هؤلاء « الكاشينيون » الى القصر كما أن أطرافهم نحيلة وان تكن متناسقة ، أما أرجلهم فقصيرة غير متناسقة • وعلى الرغم من أن « الكاشينيين » ليست لديهم قوة عضلية الا أنهم رياضيون ونشيطون ، فهم يحملون الى أسفل الجبل أحمالا من خشب الوقود وكميات من الأخشاب الأخرى ، وهو ما لا يستطيع الرجل الأوربى أن يفعله الا بجهد جهيد •وتثب بناتهم الصغار فى الممرات كالغزلان ، بينما تتطاير خصلات شعورهن السائبة فى الهواء •

ويسود نظام الحكم الأبوى بين سكان الجبال هؤلاء حتى اليوم • فكل عشيرة يحكمها زعيم ورث الحكم عن أبيه الزعيم ويساعده نواب قد توارثوا هذه الوظيفة كذلك • والأمر الذى يبعث على العجب أنه بينما نراعى وراثة الابن الأكبر لمنصب نائب أبيه الزعيم فى صرامة ، « فان الابن الأصغر يرث زعامة العشيرة عن أبيه • فاذا كان اصغر الابناء قد توفى ورثه أصغر الابناء الاحياء • وهذا النظام يتبع فى وراثة الارض ، فالابن الاصغر هو الذى يرث الأرض فى كل الاحوال ، بينما يرحل الابناء الكبار ويستصلحون اراضى يمتلكونها » • ومن ثم فان حق الابن الاصغر فى الارض يرتكز على عادة خروج الابناء الكبار الى الحياة ليبحثوا عن رزق لهم ، بينما يبقى الابن الاصغر مع والديه فى بيت الأسرة القديم •

وقد تعرف دكتور « جون أندرسون » على عادة شبيهة بتلك العادة منتشرة بين « الشانيين » فى الصين وهم جيران الكاشينيين فى حى « بونان » • فالزعماء ــ كما يقول ــ يمارسون سلطة الأبوة فى مقاطعاتهم بمساعدة مجلس الزعماء ، فهم يقضون بين الناس فى جميع الأحوال المدنية والجنائية • والزعيم (تساوبوا) هو المالك الاسمى للأرض جميعها ، ولكن كل أسرة تضع يدها على قطعة محددة منها تزرعها وتقدم عشر المحصول ضريبة للزعيم • ولا يجرؤ أحد على أن يزعج هذه الأسرة فى أرضها ، كما أن هذه الأرض تؤول بعد الأب الى الابن الاصغر ، بينما يبحث الاخوة الآخرون لهم عن عمل آخر أو عن تجارة اذا كانت مزرعة الأب صغيرة للغاية • ومن ثم فان الشانيين يميلون الى الهجرة والاقامة فى أرض خصبة كما يحدث فى « بورما البريطانية » •

وأغلب « الشانيين الصينيين » ينصرفون الى الزراعة وربما وصلوا الى مستواهم فى الزراعة مستوى البلجيكيين ، فهم يزرعون كل شبر من أرضهم ، ومحصولهم الرئيسى هو الأرز الذى ينمو فى حقول صغيرة مستديرة تجاورها السدود ، كما تمر بها الممرات وبوابات المياه لريها • ففى فترة الجفاف تترك المياه لتتدفق من أقرب نبع وتنساب خلال القنوات التى لا يحصى لها عدد حتى يتسنى لهم أن يروا كل حقل من الحقول فى راحة • وفى بداية شهر مايو يبدو الوادى من أحد طرفيه الى الطرف الآخر بقعة من المستنقع المائى الذى يمتلىء بسيقان الأرز الذى يتلألأ فى أشعة الشمس • أما حوض النهر فيكاد يبدو نصفه عاريا نتيجة خلوه من المياه التى تدفقت فى الحقول •

و « الشانيون » أو بالأحرى « الشاى » هم أكثر العناصر كثرة وانتشارا فى شبه جزيرة الهند الصينية ، فهم ينتشرون فيما بين « أسام » الى « كوانج ــ سى » فى الصين ، ومن « بانكوك » الى داخل « بونان » • و « سيام » هى الولاية المستقلة اليوم بين الولايات الشانية • ويرتبط « الشانيون » بالصينيين ارتباطا وثيقا فى الملامح

الشكلية وفى اللغة • حقا ان اللغة الصينية واللغة الشانيةتعدان اختين سواء فى التركيب اللغوى أو من ناحية الثروة اللغوية ؛ وهمـا فى ذلك تختلفان اختلافا كليا عن كل من لغة « بورما » و « التبت »اللتين تنتميان ــ رغم هذا الاختلاف ــ الى هذه الأسرة اللغوية العامة التى يطلق عليها علماء اللغة اسم اللغة « الصينية ــ التبتية » • وعلى الرغم من أن الطبيعة الجبلية تغلب على بلاد الشانيين ، الا أنهم لا يعترفون بأنهم سكان تلال . وذلك لأنهم يفضلون الارتباط بالوديان المسطحة الغرينية ، وبطون الوديان التى تتخلل الجبال • وفى كل مكان تجـد الزارعون الكادحون ، كما تخترق السهول الاكثر اتساعا قنوات الرى بينما تحول السدود المجارى المائية الى قنوات تروى المنحدرات • وقد تستخدم العجلات المصنوعة من المامبو فى رفع المياه الى الحقول ، حيث ترتفع شواطىء الانهار ، وحيث توجد الاراضى المسطحة بوفرة بحيث تعوضهم جهودهم : البدنية والمادية • فاذا كانت الاقـامة غير ميسرة فى السهل ، فقد يلجأ الشباب فى بعض الاحيان الى قطعة من الارض تكثر فيها الاحراش ، ولكن هذه الاراضى لا تصـلح لزراعة الارز ، وانما تستغل فى زراعة بساتين الفاكهة وأشجار المـوز . ومن الممتع أن نلاحظ أن عادة حق الابن الاصغر فى الارث تنتشر بين شعب متقدم تقدما نسبيا مثل الشانيين •

ويقـال : ان عادة حق الابن الاصغر فى الارث تنتشر كذلك بين «الشانيين» الذين يسكنون التلال الواقعة على مشارف بورما وأسام • ولم يتحدد بعد نسب هؤلاء الشانيين على وجه التحديد ، ولكنهـم ينتمون فيما يبدو الى الأسرة المنغولية ويتحدثون لهجات متفرعة من لغة « بورما ــ التبيتية » • وما زال معظم « الشانيين » يعيشون حياة بالغة فى الهمجية ، كما أن العداء يشيع بينهم وبين جيرانهم • وهـم ينقسمون الى عشائر صغيرة كثيرة يغير بعضها على بعض أو على القرى البورمية المجاورة . كما أنهم يعتمدون أساسا على الزراعة • ومحاصيلهم

الرئيسية هى الارز والبقول والسمسم والدخان • على أن بلادهم ليست صالحة كلية للزراعة ، حيث أن التلال تغطيها الاحراش الكثيفة كما تتخللها الوديان الضيقة الصغيرة الشديدة الانحدار • على أن السكان قد طهروا بعض المناطق القريبة من القرى من الأحراش وأعدوها للزراعة • ومن أبرز قوانينهم فى الزواج والارث ، تلك العادة التى تعطى الرجل الحق الاول فى الزواج من ابنة عمه • والقاعدة هى « أن الابن الاصغر هو الذى يرث أسرته ، وهو ملزم بالبقاء فى منزل أبيه ورعاية والديه وأخواته » ولكنه يبدو أن عادة حق الابن الاصغر فى الارث قد تحولت بين « الهاكاشين » أو هى فى طريقها الى التحول : الى عادة حق الابن الاكبر فى الارث ، وان كان الابن الاصغر فى أسرتين أو عشيرتين على الاقل من بين عشائر هذه القبيلة ، هما « الكنلاوت » و « كلارسيوسونج » ، لا يزال على الدوام يرث مسكن الاسرة ، مالم يتنازل عن حقه ، أو يكون فى حالة نزاع مع أبيه أو يكون مجذوما أو مجنونا • وقد كان القانون الثابت فيما مضى بين جميع عشائر «الهاكا» أن يرث الابن الاصغر مسكن الاسرة • ولكن رجلا بعينه كان يسكن فى « سانجتى » ويدعى « لين نون » اورث مسكنه الى ابنه الاكبر بدلا من أن يورثه الى ابنه الاصغر ، ومنذ ذلك الوقت اتبعت معظم العشائر هذا النظام • « أما فيما يختص بملكية الارض (لاى رام) . التى تقع فى نطاق حوزة قبيلة « هاكا » فان ثلثى الارض يرثها الابن الاكبر والثلث المتبقى يرثه الابن الاصغر » •

وقانون الوراثة السائد بين قبيلة « كامى » أو « أهكامى » . وهى قبيلة تسكن تلال أراكان على حدود « بورما » . هو أنه «اذا توفى الأب تاركا ولدين أو أكثر . فان التركة تقسم على النحو التالى : تقسم التركة بالتساوى اذا كان قد ترك ولدين • فاذا كانوا أكثر من اثنين فان كلا من الابن الاكبر والأصغر يأخذ نصيبين من التركة ، أما سائر الاخوة فيأخذ كل منهم نصيبا واحدا » • ويبدو أن هذا النظام فى الارث يوفق بين عادتى حق ارث الابن الاصغر وحق

ارث الابن الاكبر ، ذلك ان الابن الاكبر والابن الاصغر يفضلان على قدم المساواة على سائر الاخوة المتوسطين • وربما اشار هذا التوفيق بين النظامين الى مرحلة الانتقال من عادة حق ارث الابن الاصغر الى عادة حق الابن الاكبر •

وقد قيل : ان عادة حق ارث الابن الاصغر تنتشر كذلك بين « اللوليين » ؛ وهم جنس أصلى ذو شأن ينتشر فى اقليم يونان الصينى ، وينتمى الى الأسرة المنغولية ويتحدث فرعا من فروع لغة « بورما التبينية » ووفقا لما رواه رحالة انجليزى « ان نظام وراثة الممتلكات والخلافة فى الزعامة غريب عند هذا الشعب ، فالابن الأصغر يرث أباه عادة ، ومن بعده الابن الاكبر » •

وبهذا نكون قد فرغنا من الحديث عن القبائل المغولية التى يسود فيها نظام حق ارث الابن الاصغر • والآن نتعرض لقبيلتين يؤول الارث فيهما أساسا الى الابنة الصغرى •وهما قبيلتا «كهاسى»، و « جارو » فى « أسما » • ولايزال موضوع أصل قبيلة «كهاسى» ؛ وعلاقاتها العنصرية محل نقاش • فمن المؤكد أن هذه القبيلة تتحدث لغة لا تنتمى الى الأسرة المغولية على عكس كل القبائل المحيطة بها • ويبدو أن لغتهم تنتمى الى لغات « مون ــ كمير » التى يتحدث بها فى « الهند الصينية » ، تلك اللغات التى يعتقد الآن أنها تؤلف بدورها فرعا من أسرة لغوية كبيرة هى أسرة « أوستريك » التى يتحدث بها من مدغشقر فى الغرب الى جزيرة « ايستر » فى الشرق ، ومن نيوزيلندة فى الجنوب الى البنجاب فى الشمال • على أن تحدث قبيلة بلغة غير مغولية لا يعنى عدم انتمائها للعنصر المغولى • ذلك لأن اللغة اذا لم تثبت عن طريق الكتابة عند الشعب الذى يتحدث بها ؛ فانه من السهل أن يهملها هذا الشعب ويستبدل بها لغة أخرى يستعيرها من عنصر مسيطر اختلط به هذا الشعب • وهناك أمثلة صائبة تشير الى هذا الانتقال السريع من لغة لاخرى ، دونت عن قبائل بورما الذين يتحدثون لغات ولهجات مختلفة • وتشير الملامح

الطبيعية لأفراد لقبيلة « كهاسى » وبالمثل طبائعهم الى أصلهم المغولى. فمظهرهم الخارجى لا يخطئه انسان بحق كما يقول «سير وليم هنتر» • فهم قصار قويو العضلات ذوو رءوس كبيرة ، وخدود ذات عظام عالية عريضة ، وأنوف مفلطحة ، وذقون ذات شـــعر قصير ، وشـــعور مسدلة سوداء ، وعيون ذات لون بنى أو أسود ، وجفون منحرفة وان لم يكن انحرافها على نحو جفون ــ الصينيين وبعض القبائل المغولية • أما بشرتهم فيختلف لونها من مكان لآخر ، من اللون البنى الفاتح الذى يميل الى الصفرة الى اللون البنى الداكن • وهـــم مرحون بطبعهم ، جذلون ، سمحو الطباع ويميون كل الميل إلى النكتة • وكل هـــذه الخصائص تؤكد بحق وجهة النظر التى تقول : ان قبيلة « خاسى » تنتمى الى المجموعة المغولية أكثر من انتمائها الى مجموعة الشعوب الجنوبية والاستوائية فى أساسها ، تلك المجموعة التى تنتمى قبيلـــة « خاسى » بلغتها اليها •

ومهما يكن الامر ، فان قبيلة « خاسى » لا تختلف فى وســـائل حياتها ومستواها الحضارى بشكل عام عن القبائل المغولية التى تسكن جنوب شرق آسيا وتتبع فى نظام ارثها عادة حق ارث الابن الاصغر • فأفراد هذه القبيلة يعيشون فى قرى مستقرة قلما يغيرونها ، وهـــم يعتمدون أساسا على الزراعة حيث أنهم مزارعون نشيطون وان كانت الوسائل التى يتبعونها فى فلاحة الأرض بدائية على نحو ما • وهم يقومون بقطع أشجار الغابات وحرقها كما تفعل معظم القبـــائل التى تسكن تلال هذه المنطقة ، وبذلك يحصلون على أراض جديدة يعدونها للزراعة • أما غذاؤهم الرئيسى فهو الأرز والسمك الجاف •

ويعتمد النظام الاجتماعى لقبيلة « خاسى » على صلة القربى بالأم ، أى على الرجوع بسلسلة نسبهم الى النســـاء فحسب • فكل عشيرة من عشائر هذه القبيلة تدعى صلة نســـبها الى جدة ما لا الى جد ، كما أن كل رجل يرجع بسلسلة نسبه الى أمه فجدته وهكذا .ولا

يرجع به إلى أبيه فجده • وكما أنهم ينتسبون الى أمهاتهم ، فأن الارث كذلك يؤول الى نساء الاسرة لا الى ذكورهـا • والابنة الصغرى هى التى ترث أمها وليست الابنة الكبرى • فاذا توفيت الابنة الصغرى فى حياة أمها ، فان أختها الاكبر منهـا مباشرة هى التى ترث الأم • فاذا لم يكن للأم بنات ، فان التركة تؤول الى أصغر أخواتهـا التى ترثها بدورها أصغر بناتها • حقا ان البنات الكبار لهن حق المشاركة فى الارث عند وفاة الأم ، ولكن الابنة الصغرى تحصل على النصيب الأكبر بما فى ذلك جواهر الأسرة ومسكنها ، بالاضافة الى أكبر نصيب من محتويات البيت • ومع ذلك فانه لا يحق لها أن تتصرف فى مسكن الاسرة دون موافقة اخواتها الكبار اللاتى يكلفن بدورهن باصـلاح هذا المسكن على نفقتهن • أما عن الأرض فانهـا تؤول الى الابنة الصغرى وحدها على أن تشاركها أخواتها فى محصـول الأرض • وغالبا ما تعيش الجدة وبناتها وحفيداتها تحت سقف واحـد أو فى منازل منفصلة تقع فى محيط واحد • والجدة هى التى تدير أمـور البيت طالما كانت على قيد الحياة • وفى مثل هذا المسكن الذى يسيطر فيه العنصر النسائى ، ليس هناك وجود للرجل ، فالرجل ليست لـه أدنى أهمية ابنـا كان أو أخـا • ذلك لأنه يترك البيت عندمايتزوج ويعيش مع أسرة زوجته • فاذا كان زوجا لاحدى نساء البيت ، فان هذا لا يرفع من قدره فى هذه الأسرة ، لأنه لا يعد عضوا منأعضائها كما أن ليس له أى حـق فى الارث ، وانما ينظر اليه بوصـفه مجرد والد • وكل الممتلكات التى يكونها بعرق جبينه تؤول الى زوجته بعد وفاته ، ثم تؤول من بعدها الى الابناء على أن تحصل الابنة الصغرى على أكبر نصيب كالعادة • هو يظل فردا غريبا طالما كـان يعيش فى مسكن زوجته • فإذا توفى فإنه لا يدفن فى مدافن الاسرة بجـوار قبر زوجته ، بل لا يمس رماد جثته رماد جثتها •

وعادة ارجاع النسب الى المرأة ، وانتقال الارث بين النسـاء

بدلا من الرجال عادة مألوفة بين الاجناس غير المتمدينة • وربما يرجع السبب فى أصل نشأتها الى التأكد من صلة النسب بالأم بالمقارنة الى عدم التأكد من الانتساب الى الأب ،وذلك فى مجتمع يبيح فى حرية الاتصال بين الجنسين • على أن هذه مشكلة كبيرة صعبة تبعدنا مناقشتها عن موضوعنا الرئيسى • وكل ما يهمنا هو أن العادة المتبعة بين قبيلة « خاسى » فى الوقت الحاضر ، بصرف النظر عن مدى قدم هذه العادة بينهم ، ترتبط بنظام يلزم البنات بالبقاء ، وفقا له ، فى بيت الأسرة ، فى حين يخرج الأبناء ليعيشوا مع أسر زوجاتهم • فالنساء اذن فى ظل هذا النظام ، هم الافراد الذين يبقون مدى الحياة فى بيت الأسرة ، ومن ثم كان من الطبيعى أن يسيطرن على البيت ومحتوياته بدلا من أن يسيطر عليها الرجال الذين يتركون بيوت أسرهم ليعيشوا فى أسر زوجاتهم ، وبذلك يقضون فترة من حياتهم فى كل بيت • وهذا السبب نفسه يفسر وراثه النساء للأرض ، اذا كانت الأرض تقع بجوار مسكن الأسرة الذى يتركه الأبناء الذكور لينضموا الى أسر زوجاتهم فى قرى نائية • ولعله من السهل الآن أن نفهم فى ظل هذه الظروف السبب فى أن البنات لا الأبناء ، هن اللاتى يرثن ممتلكات الأسرة ، الحقيقة منها والشخصية •

على أننا اذا كنا قد قدمنا السبب فى تفضيل النساء على الذكور فى الارث ، فما زال علينا أن نبحث عن سبب تفضيل الابنة الصغرى عن اخواتها اللاتى يكبرنها فى الارث • وتفسر قبيلة « كهاسى » نفسها هذا التفضيل ، بأن الابنة الصغرى هى التى يلقى على عاتقها القيام بالواجبات الدينية • فهى التى تبقى على الدين على حد تعبيرهم ، أى أنها مكلفة بأن تؤدى شعائر الأسرة وأن تسترضى أجدادها • ومن ثم كان من العدل أن ترث الابنة الصغرى النصيب الأكبر فى تركة الأسرة لما تتجشمه من القيام بالتزامات الأسرة • ولهذا السبب نفسه تفقد الابنة الصغرى هذا الامتياز كما لو كانت قد توفيت ، وتمنحه أختها التى تكبرها مباشرة ، وذلك اذا هى غيرت دينها أو ارتكبت

دنسا بانتهاكها حرمة شيء مقدس • على أن هذا السبب الذى يعزى لتفضيل الابنة الصغرى على أخواتها على هذا النحو غير مقنـــع ، اذ ما زال علينا أن نتساءل عن سبب كون الابنة الصغرى أكثر ملاءمة من اخواتها فى القيام بواجب تقديس الأجداد • ويبدو انه ليست هناك أى اجابة عن هذا التساؤل • كما أن السبب الذى تعزوه القبائل بعد خروج الاخوة الكبار منه ليستقلوا بمعيشتهم ، لا يصلح تفســـيرا لتفضيل الابنة الصغرى فى قبيلة « كخاسى » ، حيث أن البنات جميعا يمكثن ، كما رأينا ، فى بيت الاسرة ، وفيه يستقبلن أزواجهن • ومع ذلك فقد كان من الطبيعى أن نتوقع ان سبب تفضيل الابنة الصغرى ، يناظر السبب فى تفضيل الابن الاصغر • وبناء على ذلك فان النظرية التى تفسر حالة ، ولا تفسر الحالة المشابهة لهـــا ، لا تعد نظرية مقنعة •

أما القبيلة الثانية فى « أسام » التى تتبع عادتى الانتســـاب الى الأم وتفضيل الابنة الصغرى بالارث ، فهى قبيـــلة « جـــارو » التى تسكن التلال غير الشاهقة التى تغطيها الغابات الكثيفة وتسمى باسم القبيلة • وليس هناك شك فى انتماء هذه القبيـــلة للأصـــل المنغولى ، ذلك أن أفراد هذه القبيلة فصار البنية ، أقوياء الأطراف نشيطون وملامحهم شديدة الشبه بملامح الصينيين • وهم يتحدثون لغة « بورما ــ التبتية » التى تنتمى الى أسرة لغـــات « الصين ــ التبتية » • حقا انه يروى عنهم رواية مشهورة « عن هجرتهم من التبت ووصولهم الى السهول التى تقع فى ســـطح جبال الهملايا ، وعن تجوالهـــم شرقـــا الى وادى « براهما بوترا » ، وعـــن تعقبهم مرة أخرى لآثار خطواتهم حتى وصولهم الى السهول التى تقع بين هذا النهر والتلال التى يسكنونها اليوم • ويبدو أنهم استقروا فى هذا المكان بعض الوقت قبل أن يقوموا بتجوالهم الأخير الى البلد الجبلى الذى يعد اليوم موطن هذه القبيلة » • وقد أزيلت كل الغابات البكر التى كانت فيما سلف تغطى تلال « جارو » ، وذلك بقصـــد

تهيئة الأرض للزراعة • ولكن البامبو والأشجار الصغيرة حلت محل الغابات ، ذلك أن البلد كله على وجه التقريب قد غطته الأحراش الكثيفة فيما عدا مساحات من الارض أزيلت منها هذه الأحراش وأعدت للزراعة • والرجل « الجاروى » هو فى الاصل رجل مزارع . ففلاحة الأرض هى أول وآخر عمل يقوم به فى حياته ، وهو العمل الذى يبذلفيه قصارى جهده • وطريقته فى فلاحة الأرض ساذجة ؛ فهو يختار قطعة من الأرض غالبا ما تقع على جانب التل ؛ ثم يزيل منها الأحراش فى الجو البارد الذى يدوم من شهر ديسمبر الى شهر فبراير • وتظل الأرض مغطاة بالأشجار او البامبو ، حيث ان معظم أحراش التلال ينمو فيها البامبو وحده ؛ حتى نهاية شهر مارس حيث تحرق وهى راقدة فى مكانها • ثم تبذر البذور فى شهرى ابريل ومايو بمجرد أنتسقط قطرات المطر الأولى • وهم فى ذلك لا يعزقون الأرض أو يحرثونها ، وانما تحفر فيها حفر بعصاه مدببة وتوضع بعض بذور الأرز فى كل حفرة • أما الذرة العويجة فترمى بذوره ببساطة بين رماد الأحراش المحترقة • فاذا أعدت الأرض على هذا النحو ، فانهم يستمرون فى زراعتها مدة عامين ثم تهجر وتترك بورا مدة سبعة أعوام على الأقل • وتبنى القرى عادة فى الوديان أو فى الأغوار التى تقع على جوانب التلال حيث تتدفق المياه فى وفرة • أما حول القرى فتمتد الاحراش من كل جانب الى مالا نهاية • وتشيد البيوت على أعمدة طويلة يبلغ ارتفاعها مائة قدم • وحيث ان البيوت تخلو من النوافذ ؛ فان الظلمة والكآبة تشيعان فيها من الداخل • وتشغل حجرة العائلة الجزء الاكبر من المبنى • وفى هذه الحجرة تنام النساء غير المتزوجات ؛ كما تجتزأ منها أجزاء لينام فيها البنات المتزوجات وأزواجهن • أما رب الأسرة وزوجته فلهما حجرة نوم خاصة بهما • أما الرجال العزب فلا ينامون فى بيت الأسرة ؛ بل ينامون فى مسكن منفصل يبيت فيه كل رجال القرية غير المتزوجين • ويأوى الزائرون الأغراب الى فناء هذا المسكن المنفصل ؛ كما يعقد فيه رجال القرية اجتماعاتهم • وهذه العنابر التى يبيت فيها الرجال العزاب مألوفة

لدى قبـــائل « النجـــا » فى « أســـام » ، ولكنها لا توجد عند « الخاسيين » الذين يسكنون النجاد •

وتنتشر عادة الانتساب الى الأم بين قبيلة « كارو » كما تنتشر بين قبيلة « كهاسى » • فالزوجة هى ربة الأسرة ، وكل ممتلكات الأسرة تورث من خلالها • وتنقسم القبيلة الى مجموعات من الأسر العديدة التى تمتد بسلسلة نسبها الى الأم ، وتسمى « ماشونج » • وأفراد كل مجموعة من هذه المجوعات يرفعون نسبهم الى جـدة ا ، لا الى أبيهم الذى تكاد تجهله أسرته • ويتبع هذا النظام فى الارث كذلك ، اذ أن الارث يقتضر على فرع النساء • ولا يحق للرجـل أن يمتلك ممتلكات الا عن طريق ما يكسبة بعرق جبينه ، أمـا ممتلكات الأسرة فليس له حقفيها بأية حال ن الاحوال • « فقـانون الارث يمكن أن يتلخص فى أن الممتلكات متى اصبحت فى حوزة سلســـلة الامومة ، لا تخرج منها • واذا كان أولاد الام ينتسبون اليها ، فقد يبدو لاول وهـــلة أن الابن يؤكـد هذا النظـــام • لكن الذى يحـــدث أن الابن يتحتم عليه أن يتزوج امرأة من عشـــيرة أخرى ، فاذا أنجب أبناء ، فانهم ينتمون الى أمهم • ومن ثم فان الارث يؤول الى الابنة ثم الى ابنتها من بعدها وهكذا • فاذا لم يكن للأم ابنة ، فان التركة تؤول الى امرأة اخرى من نفس العشـــيرة يعينها بعض أفراد هذه العشيرة » • على أنه على الرغم من ان اقطاعية الاسرة وممتلكاتهـــا تنتمى الى المرأة من الوجهة القانونية ، فان الزوج هو الذى يستفيد عمليا من هذه الممتلكات فى أثناء حياتها • فأرض قرية من القرى ــ على سبيل الايضاح ــ هى ، على وجه التحديد ، ملك لزوجة رئيس القرية ولكنه على ألسنة الناس وفى أذهانهم ، هو مالك هذه الأرض • وعلى الرغم من انه يستمد حقوقه كلية من زوجته ، فان اسمها لا يذكر فى الدعوات القضائية ، اللهم الا اذا كان من صـــالح المدعى أن يذكر اسمها •فالمرأة عمليا ، ليست سوى الوسيلة التى تنتقل من خلالها الممتلكات من جيل لجيل وذلك لمصلحة الذكور فى المصاف الاول •

على أن كل ما سمعناه من الثقات الذين أعتمدنا عليهم فى أقوالنا هذه ، يختص بتفضيل الاناث على الذكور فى الارث بين قبيلة « جارو » ، ولكن شيئا لم يذكر عن تفضيل الابنة الصغرى على سائر أخواتها • اذ لم يذكر الرائد « بلايفير » الذى أمدنا بوصف قيم لهذه القبيلة ، شيئا حول هذا الموضوع • وربما استطعنا أن نعزو عدم ذكره لهذا الموضوع ، أن عادة حق ارث الابن الأصغر بين قبيلة « جارو » قد انقرضت فى عصرنا الحاضر ، أو هى فى سبيلها الى الانقراض • ولكنه يبدو أن هذه العادة كانت تتبعها هذه القبيلة على الأقل حتى نهاية القرن الثامن عشر على وجه التقريب • ذلك أن باحثا انجليزيا زار هذه القبيلة فى عام ١٧٨٨ م وعكف على دراسة أحوالها ، ودون عنها هذه العادة • فبعد أن وصف هذا الباحث حفل زواج رآه رأى العين عند هذه القبيلة ، قال : « لقد درست ظروف احتفال الزواج عند قبيلة « جارو » من خلال مشاهدتى لحفل زواج « لونجرى » ، ابنة الزعيم « أوداسى » الصغرى التى تبلغ من العمر سبع سنوات ، من ابن رجل من عامة الشعب فى قبيلة « جارو » ، هو « بوجلون » الذى يبلغ من العمر ثلاثة وعشرين عاما • ويحق لى أن أدلى بملاحظتى فى هذا الموضوع ، وهو أنه على الرغم من عدم تكافؤ السن والمستوى الاجتماعى فى هذا الزواج ، فانه من حسن حظ «بوجاون » أن يتم له هذا الزواج ، حيث أنه سيرث الزعامة والارض معا • ذلك أن الابنة الصغرى عند قبيلة « جارو » هى على الدوام صاحبة الحق فى الارث وليس لأحد من اخوتها الذين ولدوا قبلها أن يرثوا شيئا عند موت والدها الزعيم • والأغرب من هذا ، أنه اذا توفى الزوج « بوجلون » ، فان « لونجرى » تتزوج أحد اخوته • فاذا لم يكن له أخوه تزوجت أباه • فاذا كان الأب كهلا رفضته وتزوجت ممن تختاره » •

وبهذا نكون قد أشرنا الى انتشار عادة حق الابن الاصغر بين عدد من القبائل التى تسكن « الصين الجنوبية الغربية » والمناطق

المجاورة لها فى «بورما» و «أسام» • وتنتمى هذه القبائل جميعا فيما عدا قبيلة «كهاسى» التى يساورنا الشك فى أصلها ، الى الاسرة المنغولية • ويعتقد الباحثون أن الموطن الاصلى لهذه القبائل كان الصين الشمالية الغربية فيما بين أعالى نهرى «يانج ــ تسى ــ كيانج» ، و «هو ــ أنج ــ هو» ، ومن هذا المكان انتشروا الى كل الجهات • وقد مروا مقتفين أثر وديان النهر فى أثناء هجرتهم بأنهار «شين دومين» ، و «اراوادى» و «سالوين» • حتى وصلو الى «أسام» • وقد هاجرت هذه الشعوب المغولية فى ثلاث هجرات متعاقبة كانت آخرها هجرة «الكاشينيين» أو «السينجفونيين» •

وقد استمرت هذه الهجرة الأخيرة إلى أن أوقفها الاحتلال البريطانى لبورما الشمالية • وقد كانت وديان نهرى «براهما بوترا» و «اراوادى» الكبيرين هى بحق المنافذ التى تدفق منها الغزاة الشماليون الجسوسون من مواطنهم الشمالية الباردة الجرداء فى قلب آسيا ، ليقوموا بغزو بقاع فى الجنوب أكثر دفئا وأكثر غنى من موطنهم الأول • وقد استطاعوا ، عن طريق هذا المسلك الطبيعى ،أن يحولوا جانب الحاجز الطويل الذى لا يخترق فى يسر ، الذى يتمثل فى جبال الهملايا ، الى ممر مباشر لغزو الهند من جهة الشمال • على أنه يبدو أن جماعات هؤلاء الغزاة لم تتقدم على الاطلاق فى أثناء سيرهم جنوبا ، فيما وراء جبال «أسام» المتجهة التى تكثر فيها الغابات وتهطل عليها الامطار الغزيرة • فهناك توقف سيرهم ، وهناك استقروا وما زالوا مستقرين فى هذا المكان حتى اليوم ، كما لو كانوا ، طليعة من جيش كبير تتطلع الى قمم التلال الباردة وأطراف صعيدها المرتفع عبر الوديان الحارة والسهول اللافحة التى يكسوها بساط سندسى أخضر يمتد الى أسفل الى الاف الأقدام حتى يختفى مع الافق ، أو يتصل بسلسلة من جبال ترتطم بزرقة السماء فى الأفق البعيد • ومن المحتمل أن حرارة الهند كانت أشد بدرع واق ضد هؤلاء الغزاة أكثر فعالية من أسلحة السكان الضعيفة ، هؤلاء

الذين لم يكونوا مولعين بالحرب • أما فى البقاع التى استوطنوها . فقد كانوا يتنسمون فى حرية عبير أشجار البلط وجوز الهند ، والتنوب. تلك التى تنمو فى هذه الغابات . وكانوا يخشون أن يهبطوا الى أسفل حيث تنمو أشجار النخيل والسرخس والخيزران •

على أن عادة حق ارث الابن الاصغر أو الابنة الصغرى لم تكن تقتصر فى هذه البقاع على القبائل المغولية • فالمتبع عند قبيلة « مرو » ، وهى قبيلة صغيرة تسكن التلال الواقعة بين « أراكان » و « تشيتاجونج» ، انه اذا تزوج الأبناء والبنات فان الأب يعيش مع ابنه الاصغر أو ابنته الصغرى • وعند موته يرث هذا الابن أو تلك الابنة تركته من بعده» • ورجال المورين طوال أقوياء ذوو بشرة دكناء ، ليست لهم ملامح مغولية • وهم يزرعون الأرز ويشربون اللبن ويأكلون لحم البقر أو لحم أى حيوان آخر • وهم شعب مسالم بطبعه• جبان وبسيط . ويميل لأن يفض منازعاته عن طريق التضرع الى الارواح أكثر من أن يفضها عن طريق الحرب • والشاب عندهم يخدم مدة ثلاث سنوات من أجل زوجته فى بيت أبيها • فاذا كان غنيا ، ففى وسعه أن يدفع لأهل الزوجة مبلغ مائتين أو ثلاثمائة روبية مقابل هذه الخدمة •

وكذلك تنتشر عادة حق الابن الاصغر فى الارث بين «الهوويين» أو «اللاركا كوليين» «لوركا كول» ، الذين يسكنون حى «سينجبهوم» فى البنغال الجنوبية الغربية • وينتمى «الهوويين» الى الجنس الأصلى ذى اللون الداكن الذى يسكن الهند • وهم يشبهون «الدرافيديين» فى ملامحهم الطبيعية • وان كانوا يتحدثون لغة تختلف كلية عن لغتهم . وهى لغة يعتقد فى أنها فرع من أسرة «أوستريك» التى تعد لغة قبيلة «كهاسى» التى تسكن أسام فرعا منها كذلك • أما الجنس الذى ينتمى اليه «الكوليون» ، فقد ألف الناس أن يسموه «الكولاريين» • أما اليوم فهو يسمى فى العادة «موندا» نسبة الى القبيلة التى تسمى بهذا الاسم • و «الهوويون»

أو «اللاركوليون» شعب زراعى صرف ، وقد تطورت أساليبه الزراعية الى درجة أنه يستخدم المحاريث الخشبية ذات الرءوس الحديدية • ويبدو أنهم كانوا يسكنون فى الأصل اقليم «شوتا ناجيور» ، وهو الصعيد الشاسع المنعزل الذى يقع فى الشمال من موطنهم الحالى، والذى ما زال أقرباؤهم الموندانيون يسكنونه • ويعترف «الهوويين» بصلة قرابتهم الى «الموندانيين» كما يحتفظون برواية عن هجرتهم من « شوتا ناجبور» • ووفقا لما ترويه قبيلة «أراون» وهى قبيلة لا تزال تعيش فى حالة أكثر بدائية من «الهوويين» وتسكن اقليم «شوتا ناجبور» ، أن غزو «الهوويين» للنجد المرتفع هو الذى دفعهم الى البحث عن وطن جديد لهم فى الجنوب • على أنه ليس من اليسير أن نعتقد أن «الهوويين» قد تنحوا لجنس دونهم حضارة ، وغير مولع بالحرب مثل «الأورانيين» وأفسحوا لهم الطريق • ومهما تكن أسباب هجرة «الهوويين» ، فانهم يسكنون الآن بلادا أكثر وحشة ووعورة من التلال الرومانسية ووديان « شوتاناجبور » التى هجرها اجدادهم منذ زمن طويل • أما الاقليم الذى يسكنونه ويعرف باقليم «كولهان» أو «كوليهان» فتموج فيه فى كل مكان كتل متجهمة من الصخور البركانية المتكسرة • وفى كل مكان يصطدم البصر بسلسلة من الجبال تبلغ ارتفاعها ثلاثة آلاف قدم • وأكثر الأماكن خصوبة وازدحاما بالسكان وأعلاها مستوى فى الزراعة ، تلك الاراضى المنخفضة التى تحيط «نشاييازا» • أما فى الغرب فتمتد منطقة من التلال والأحراش الشاسعة التى تخترقها بعض الوديان اليانعة ؛ بينما تغطى المنطقة التى تقع فى أقصى الجنوب الغربى كتلة من الجبال المتجهمة ذات الغابات الكثيفة ،تلك التى تعرف باسم «سارندا ذات التلال السبعمائة» • وهناك يسكن سكان القرى القليلة الغفيرة المنعزلة فى وهاد عميقة غير قادرين على مقاومة النمور التى تجرس الاحراش الكثيفة خلسة • «والهوويون» الذين يسكنون هذه الاماكن المرتفعة المنعزلة أكثر همجية وأشد قسوة من أخوانهم الذين يسكنون الاماكن المنخفضة ، كما أن وسائلهم فى الزراعة بدائية ؛ فهم يقطعون الأشجار

فى مساحات صغيرة فى الغابة أو الأحراش التى تحيط بقراهم الصغيرة • ويعدونها للزراعة • وعلى الرغم من ان التربة السوداء تدر لهم محصولا فى بادىء الأمر • الا أنها سرعان ما تستهلك بسبب الأساليب البدائية التى يتبعها «الهوويون» فى زراعتهم • ومن ثم فهم يضطرون بعد ثلاث أو أربع سنوات من زراعتهم لتلك الأرض أن يعدوا على النحو نفسه ، أرضا جديدة للزراعة وأن يبنوا لانفسهم مساكن جديدة فى مكان آخر من البرارى المترامية • فاذا لم تسعفهم مواردهم الغذائية فى أوقات المجاعات ، فان هؤلاء المتوحشين سكان الاماكن المرتفعة ، يغيرون على جيرانهم ويحضرون معهم الى حصونهم المنيعة كل ما يمكن أن تقع عليه أيديهم من غنائم • على أن الأمر أحسن حالا بالنسبة لأقربائهم الذين يسكنون الأحياء الخصبة المنطلقة التى تقع فى الشمال • فهناك تقع القرى رشيقة فوق التلال وتطل على حقول الأرز المنبسطة فى هيئة شرفات ، وعلى الأراضى المرتفعة المتوجة • ومما يزيد معالم البلد الجميلة ما بها من أشجار التمر الهندى العتيقة النبيلة التى تزين جوانب التلال مختلطة بأشجار المانجو والبامبو • أما بيوتهم الفسيحة المتينة فتقف بسطوحها المسقفة بالقاب وشرفاتها الانيقة فى المكان المخصص لها مكونة مع الأبنية الأربعة لها أشبة بميدان يقف وسطه برج الحمام • وتضم القرية الخضراء التى يكسوها بساط من العشب الاخضر ، وتظللها أشجار التمر الهندى الضخمة ، ألواحا من الاحجار « يرقد تحتها أجداد القرية الغلاظ » • وهناك تحت ظل الأشجار الذى يثير فى النفس الرهبة ، يروق لشيوخ القرية أن يجتمعوا بعد الفراغ من عناء العمل وبعد أن تهدأ حرارة النهار ، فيجلسون على الاحجار التى سوف يرقدون تحتها مع أجدادهم رقدتهم الاخيرة ، ويستمتعون بالأحاديث والتدخين •

وكل قرية من قرى قبيلة «هو» يحكمها زعيم يسمى «موندا» : وقد يحكم زعيم واحد مجموعة ن القرى يبلغ عددها من ست الى

اثنتى عشرة قرية ؛ ويسمى هذا الزعيم « مانكى » • ومن المغريب أن النظام الذى يتبع فى خلافة الزعماء يختلف عن ذلك الذى يتبع فى ارث الملكية الخاصة . اذ بينما تتحكم عادة حق ارث الأكبر فى خلافه الزعيم ، نجد أن حق الابن الاصـــغر فى الارث هو الذى يتحكم فى وراثة الممتلكات • وهذه التفرقة بين النظـامين يؤكده دكتور « وليم دونبار » الذى أخبرنا « أن العادة التى يتبعها «الكوليون» فى الارث فريدة فى نوعها • وقد شرحت لى هذه العـــادة لأول مرة من خلال الاشارة الى ظروف «مانكى» ، كما يسمى بذلك ، الذى تجـــاوز قراه معسكرات «تشاييا سا » • فعلى الرغم من أن هذا الزعيم يحكم عددا كبيرا من هذه القرى ، وكان يعد رجلا قويا بين أقرانه ، فقـــد فوجئت بانه يسكن بيتا صغيرا فقيرا • وأن أخاه الاصغر يقيم فى أكبر بناء فى هذه القرى ، وكان ملكا لأبيه «المانكى» المتوفى • فلمـا استفسرت عن سبب هذا ، علمت أن الابن الأصغر يرث بانتظام أكبر نصـــيب فى الملكية الخاصـــة • ومن ثم فانه على الرغم من أن « المانكى » يخلف أباه فى الزعامة ويكون هو الشيخ الحاكم ، فإنـــه كان ملزما بأن يسلم الى أخيه الاصغر الممتلكات والمتاع » • واذا كان الدكتور «دونبار» لم يكن له علم من قبل بمثل هذا النظام فى الارث ، فان الرائد «تيكيل» قد ذكر هذه العادة نفسها التى يتبعها «الهوويون» أو «اللاركاكوليبون» فى ارث الملكية الخاصة ، وذلك قبل أن يذكرها ، «دونبار» بعدة سنوات ، فقال : «أن الابن الأصغر هو الذى يرث ممتلكات أبيه ، لأنه يكون عاجزا على أن يعول نفسه عند وفاة والديه على عكس اخوته الكبار الذين سبق لهم أن أعانهم أبوهم فى أثنـــاء حياته فى سبيل الاستقلال بحياتهم » • أما عن سبب اختلاف النظام فى إرث الزعامة وإرث الملكية الخاصة . فلا يحتاج الى البحث العميق ، اذ بينما نجد أنه ليس هناك ضرر من أن تؤول التركة الى الابن الاصغر لينتفع بها مهما يـــكن صغيرا ، فان المحكمة تتطلب أن يترك الحـــكم لأكبر الأبناء ؛ أى الى الابن الأكبر •

وقد روى أن عادة حق ارث الابن الاصغر تتبع كذلك عند «البهيليين» وهم جنس أهلى بدائى يسكن الهند الوسطى • وهؤلاء قوم قصار ذوو بشرة سوداء وأجسام مكتنزة قوية . ولهم مقدرة كبيرة على التحمل • قد قيل : ان اسمهم مشتق من اللفظ الدرافيدى الذى يعنى القوس . وهو السلاح المميز لهذه القبيلة • وقد فقدت هذه القبيلة لغتها الأصلية . ولكن من المحتمل ان هذه اللغة كانت تنتمى . اما الى الأسرة المونداتية (الكولارية) أو الى الأسرة الدرافيدية • وكان أفرد هذه القبيلة يتجولون فيما سبق فى الغابات التى تغطى جبالهم المحلية بوصفهم صيادين . أما الآن فقد اضطروا أن يهجروا لعبة القنص وتجوالهم الحر فى الغابات التى كانوا يسببون لها تلفا بالغا • ويعيش الكثير منهم فى العصر الحاضر فى البلد المفتوح وأصبحوا خدما فى المزارع وعاملين فى الحقول . كما أن بعضهم يعمل مؤجرا فى الأرض . والقليل منهم يمتلك قرى • وقد قيل : ان الذين يسكنون منهم فى حى «باروانى» فى الهند الوسطى على سبيل المثال . لم يتأثروا بالحضارة حتى اليوم الا قليلا وما زالوا يعيشون حياة بدائية للغاية • وليست لهؤلاء قرى محددة . اذ أن مجموعات الأكواخ التى يمكن أن تعد قرى تهجر لأدنى فزع ينتاب الاهالى . فيكفى أن يسمعوا بمجىء رجل أبيض حتى يولوا هاربين تاركين أكواخهم . كما أن هذه الأكواخ تقع متباعدة بعضها عن بعض فى نطاق ما يمكن أن يسمى قرية . لأن كل رجل يخشى خديعة جيرانه له . وما يمكن أن يدبروه من شر ضد زوجته • والبهيلى رجل غابة من الطراز الاول . فهو ذو دراية بأقصر الطرق بين التلال . كما أنه يستطيع أن يسير فى أكثر الممرات وعورة وأن يتسلق أكثر الصخور الشامخة انحدارا دون أن تزل قدمه أو يشعر بتعب • وكثيرا ما يطلق عليه فى الاعمال السنسكريتية القديمة اسم «فينابوترا» . أى «طفل الغابة» ، او يسمى «بال اندرا» . أى «سيد الطريق» • وهذه الصفات توحى بشخصية «البهيلى» بحق . فهو لم يكن يسمح لغريب أن يجتاز الشعب الضيقة « بال » المؤدية لبلده الا باذن منه ، كما كان يحصل على الجباية

من المسافرين عن طريق التهديد • بل انه ما زال حتى اليوم يفرض على المواطنين الذين يقومون برحلة ، الاعتراف بما يراه حقا شرعيا له • وفضلا على ذلك فانه صياد جرىء وماهـــر ، فهو يعرف كيف يصيد النمور والأسود والدببة ، وكيف يقتفى أثرها حتى يقتلهـــا • وفى وسع جماعة من البهيليين أن تهاجم ، هى مدججة بالسيوف وحدها فهدا هنديا وتقطعه أربا •

ويتحدد نظام الارث عند « البهيليين » الذين يسكنون « مالوا الغربية » واقليم « فيندهيان ــ سابوتارا » الذى يقع على طول وادى « ناربالندا » فى الهند الوسطى ، وفقا لعادة القبيلة ، فالابن الاصغر يرث نصف التركة وهو مكلف بدفع نفقات الاحتفال الجنائزى الذى يقام فى اليوم الثانى عشر من وفاة أبيه ، كما عليه أن يعول اخواته • أما النصف الثانى من التركة فيؤول الى الأبناء الآخرين • فاذا كان الأبناء يعيشون معا ، الأمر الذى قلما يحدث ، فان الابناء يقسمون التركة بينهم بالتساوى • وهنا نجد مرة أخرى أن تفضـــيل الابن الأصغر فى الارث يعتمد ، فيما يبدو ، على بقـــائه وحده فى بيت الأسرة حين وفاة أبيه • فاذا حدث أن الابناء جميعا كانوا يقيمون فى بيت الأسرة ساعة حدوث الوفاة ، فان الابن الاصغر لا يتمتع بأى امتياز ، وانما يرث مع اخواته على قدم المساواة •

ويبدو كذلك أن عادة حق الابن الأصغر فى الارث تنتشر فى شكل محدود بين « البداجايين » ، وهم شعب يشتغل بالزراعة ويعيش مع « الكوتايين » الذين يشتغلون بالزراعه كذلك ، و « التودايين » الذين يشتغلون بالرعى وحده فى تلال نيلجيرى « فى الهند الجنوبية » • وفيما يلى ما ذكره دكتور « ريفرز » حول هـــذا الموضوع : « لقـــد ذكر « بريكس » أن من عادة « التودايين » أن بيت الأسرة يؤول الى الابن الأصغر بعد وفاة أبيه ،ومن الواضح أن هذا القول لا ينطوى على شىء

من الصحة ، اذ أن هذه العادة لا يعرفها « التواديون » على الاطلاق ، ولكنها تنتشر بين « الباداجيين » • وقد قيل ان اتباع هذه العـــادة يرجع الى أن الابناء يتركون بيت الاسرة بعد زواجهم ، ويبتنون لهم بيوتا فى مكان آخر • وعندئذ يكون لزاما على الابن الاصغر أن يظل مقيما مع أبويه وأن يعولهما وهما على قيد الحياة • فاذا توفيا ظل مقيما فى بيت الاسرة لأنه صبح ملكا له » •

وقد قيل ان بقايا انتشار عادة حق الابن الأصغر بالارث فى شبه جزيرة الملايو قليلة ، ففى ولاية « ريمباو » احدى ولايات شبه جزيرة الملايو ، يؤول ارث الأسرة الى النساء • فاذا كان هناك أكثر من ابنة فى الأسرة ، فان الابنة الصغرى هى التى ترث مسكن الأم ، وعليهـــا فى مقابل هذا ، أن ترعى أمها فى هرمها • و « الباتاكيون » فى سومطرة شعب زراعى ، ومن عاداته أنه اذا توفى رب الأسرة تاركا وراءه عددا من الأبناء أو الأخوة ، تقسم التركة فيما بينهم ، على أن يحصل أكبرهم وأصغرهم سنا على نصيب أكبر من أنصبة الآخرين • ووفقا لفقرات تشير الى اتفاقية فى تشريع مدون وان لم ينشر فيما يبدو ، أن العادة المتبعة فى اقليم « جورجيا » الذى يقع فيما وراء القوقاز ، أن الابن الأصغر يرث بالضرورة سكن أبيه الأمير أو النبيل عند وفاته ، بما فى ذلك الأبنية الملحقة به والحديقة • فاذا كان هناك كنيسة ملحقة بتلك الأبنية ، فان الابن الأصغر يحتفظ بها كذلك بعد أن يقدر ثمنها وبعد أن يدفع لاخوته الكبار جزءا من ثمنها المقدر • أما عندما يتوفى الأب الزارع فان بيته ومزرعته تؤولان الى الابن الأكبر فى حين يرث الابن الأصغر مخـــازن الغـــلال •

٥ ــ عادة حق الابن الأصغر فى الارث فى آسيا الشمالية الشرقية :

لقد رأينا أن كل الشعوب التى تنتشر بينها عادة حق الابن الأصغر فى الارث ، باستثناء قبيلة « بهيل » ، شعوب زراعية • على أن هذه العادة تنتشر فى نطاق محدود بين القبائل التى لا تزال فى مرحلـــة

الصيد والرعى • فقد قيل انها تنتشر بين قبيلة « يوكاغير » ، وهى قبيلة مغولية تسكن سيبيريا الشمالية الشرقية ، ويعيش بعض أفراد هذه القبيلة على القنص وصيد الأسماك ، والبعض الآخر على رعى قطعان الأيائل • ويرجع عدم تمكن هذه القبيلة من ممارسة حياة الرعى الى قسوة الجو البالغة ، فهذه المنطقة تعد أبرد بقاع سيبيريا ، ان لم تكن أبرد بقاع العالم • « واليوكاغير » الذين يعتمدون فى حياتهم على القنص وصيد الأسماك ويسكنون بجوار شواطىء النهر فقراء للغاية كما أنهم يتبعون فى حياتهم أكثر الوسائل بدائية ، الى درجة أنه ليست لديهم أدنى فكرة عن ملكية أى أداة فى نطاق الأسرة ، اذا صرفنا النظر عن نتاج غذائهم • فما يغنمونه من الصيد والقنص يسلم الى نسوتهن فتوزعه أكبرهن سنا على أفراد الأسرة • ويعترف بالملكية الفردية الى حد ما فى حدود الملابس وأدوات الصيد مثل البنادق والسهام وغير ذلك من أدوات الصيد • فكل فرد من أفراد الأسرة له ملابسه الخاصة ، كما أن كل فرد يقوم فيها بالصيد أو القنص ، له أدواته الخاصة به • وتشمل الملكية الخاصة كذلك أدوات الزينة وأدوات الحياكة مثل الابر والمقص والخيط ، كما يدخل فى نطاقها أدوات التدخين مثل الغليون والقداحة وجراب الدخان وكذلك الزوارق • أما قوارب الصيد والشباك وبيت الأسرة وما يحتوى عليه من أدوات منزلية فتعد ملكا للأسرة بأسرها • أما فيما يختص بارث ممتلكات الأسرة ، فان المبدأ المتبع هو أن تؤول هذه الممتلكات الى الابن الأصغر ، فاذا انفصل الأبناء الكبار عن الأسرة أو ذهبوا ليعيشوا مع عائلات زوجاتهم بعد وفاة والديهم ، فان ممتلكات الأسرة تبقى فى حوزة الابن الأصغر ، كما أنه يمتلك بندقية أبيه • أما ملابس الأم وحليها فتؤول الى الابنة الصغرى • ولا يترك الابن الأصغر بيت الأسرة ليعيش فى بيت زوجته كماسبق أن ذكرنا ، وانما يخدم والدها بعض الوقت مقابل زواجه من ابنته ثم يصطحبها الى بيت والديه • وتعلل قبيلة «يوكاجهير» تفضيلها للابن الأصغر فى الارث بأن الابن الأصغر يحب والديه أكثر من اخوته ، كما أنه مرتبط بهما أكثر من اخوته •

واذا صرفنا النظر عن السبب العاطفى الذى تعـزوه قبيـلة « بوكاغير » فى تفضيل الابن الاصغر فى الارث ، فانه يحق لنا أن نظن أن سبب هذا التفضيل عندهم ، كما هو الحال عند القبائل الأخرى التى سبق ذكرها ، يرجع حقا الى عادة بقاء الابن الأصغر فى بيت والديه بعد أن يتزوج أخوته الكبار ويبرحوا بيت الأسرة ليعيشوا فى بيوت أسر زوجاتهم • وهذا الظن يصل الى حد اليقين اذا لاحظنا أن الأبناء فى هذا الفرع من قبيلة « بوكاغير » الذى يعتمد فى معيشته على تربية قطيع الأبائل ، « لا يبرحون بيت الأسرة بعد زواجهم وانما يبقون فيه ويتقاسمون ممتلكاته فى العادة • والأبناء يبقون معا فى بيت الأسرة بدوافع روابط القربى من ناحية ، وبسبب قلة الأبائل التى يربونها من ناحية أخرى ، الأمر الذى يجعل تقسيم ما ينتمى للأسرة غير عملى » • وليس هناك ما يمكن أن يلقى مزيدا من الضـوء على عادة حق الابن الأصغر فى الارض ، من أننا نلاحظ أن الابن الأصغر فى نطاق حدود ضيقة فى هذه القبيلة الصغيرة ــ ذلك أن تعداد قبيلة « بوكاغير » فيما نعلم ، لا يتجاوز بضع مئات ــ يرث التركة جميعها ، اذا كان من الفرع الذى يبقى فيه الابن الاصغر فى بيت الأسرة بعد وفاة والديه • ولكنه لا يفضل عن اخوته فى فرع القبيلة الذى يبقى فيه الأولاد جميعا فى بيت الأسرة ، وتقتسم معهم التركة على حد السواء • ومن ناحية أخرى فان الابنة التى تتزوج فى فرع قبيلة « بوكاغير » الذى يعيش على تربية الأبائل ، تترك بيت أبيها لتعيش مع حميها ، ولهذا فانها لا ترث أى نصيب من التركة عند وفاة أبيها • أما تركة الأم من ملابس وحلى وأوان ، فترثها البنات اللاتى لم يتزوجن عند وفاة أمهن • فالأحوال الاجتماعية فى فرع قبيلة « بوكاغير » الذى يعيش على تربية الأبائل تعارض الى حد ما بطريق مباشر ، تلك التى تنتشر بين « الحاسيين » ، فالأبناء فى قبيلة « بوكاغير » يعيشون فى بيت الأسرة طوال حياتهم ويرثون ممتلكات الأب ، فى حين تترك البنات بيت الأسرة عند زواجهن ولا ينلن من التركة شيئا • أما قبيلة « خاسى » فان البنات تمكثن فى بيت الأسرة طوال حياتهن ويرثن تركة الأسرة ، فى حين يترك الأبناء

بيت الأسرة عند زواجهم ولا يرثون شيئا • أى أن التركة فى كلتـــا الحالتين تؤول بطبيعة الحال الى الابناء الذين يبقون فى بيت الأسرة ، ذكورا كانوا أم اناثا •

وتعطى قبيلة « تشوكشى » التى تعيش على تربية الأيائل وتسكن فى أقصى الشمال الشرقى من آسيا ، أهمية كبيرة « للوح النار » ،وهو عبارة عن شكل بدائى محفور فى الخشب فى هيئة انسان ويستخدم فى اشعال النار عن طريق الاحتكاك • وتخلع القبيلة عن هذه الألواح صفات انسانية وتعدها مقدسة ، فهم يحسبون أنها تحمى قطيع الأيائل من الشرور وتحرسه بحق • وتملك أسر كثيرة عددا من هذه الألواح بعضها جديدة نسبيا ، والبعض الآخر توارثته عن الأجيال السالفة • ويعد أكثر الألواح قدما فى أى الأحوال أرثا ثمينا ، وهو يؤول مع تركة البيت وكل ما يتبعه إلى الوريث الرئيسى الذى يكون فى العادة الإبن الأكبـــر أو الأصغر • ومن الواضح أن السؤال عما اذا كان الوريث هو الابن الأصغر أو الأكبر يتحدد بالنسبة لمن يظل منهما فى بيت الأسرة بعـد وفاة الأب • فقد قيل لنا أن « مسكن الأسرة يؤول الى الابن الأصغر ، كما يصبح هو الوريث الرئيسى ، اذا ما ترك الأخ الأكبر بيت الأسرة » •

وتنتشر عقيدة تبجيل ألواح النار بين «الكورياكيين» الذين يسكنون سيبيريا الشمالية الشرقية • فهم يعدون هذه الألواح آلهة نار البيت ، وحارسة مسكن الأسرة كما ينسبون لها المقدرة السحرية على حمـاية قطيع الأيائل ، وعلى مساعدة الرجال فى الصيد وقتلهم حيوانات البحر الثديية • « فلوح النار عند المجموعة التى تعيش على الصيد البحـرى فى قبيلة « كورياك » ؛ كما هو الحال عند المجمـوعة التى تعيش على تربية الأيائل ، يرتبط برخاء الأسرة ، ومن ثم يحـرم نقـله من بيت الأسرة الى بيت غريب • ولكن اذا حدث أن اجتمعت أسرتان لتعيشا فى مسكن واحد فى فصل الشتاء لتقتصدا فى استهلاك وقود التدفئة ، فان كل أسرة تحتفظ معها بتعويذتها فى هذا المسـكن • ويرث اللوح المقدس الابنا الأصغر أو البنت الصغرى على شرط أن يكون زوجها

مقيما فى بيت والدها ، وذلك فى حـالة ما اذا كان اخوتها الكبـار قد استقلوا بمساكنهم أو استقلوا بقطيعهم » • وهنا يبدو مرة أخـرى أن عادة حق الابن الأصغر فى الارث تتحـدد باقامته وحده فى بيت الأسرة بعد أن يكون اخوته الكبار قد برحوه • ولا تقتصر هذه العادة على جنس الآخر ، فقد يكون المتمتع بالارث ابنا أو بنتا بناء على من يظل فى بيت الأسرة وحده فى نهاية الأمر •

٦ ــ توريث الابن الأصغر فى أفريقيا :

يقل انتشار عادة حق الابن الأصغر فى الارث الى درجة كبيرة بين القبائل الرعوية فى افريقيا • فهى تتبع فى شكل محدود عند «البوجو» ، وهم قبيلة تعتمد أساسا فى معيشتها على رعى قطعان الماشية وان كانوا يقومون بفلاحة الأرض فى نطاق محدود • وهم يعيشون فى أطراف جبال الحبشة الناشئة جهة الشمال ، وتفتقر بلادهم الى الغابات والمياه الجارية، وان كانت تتمتع بجو معتدل صحى • وتتجول القطعان على مدار السنة على وجه التقريب بحثا عن المراعى الخضراء ويهاجر معهما ثلث السكان حيث يقيمون فى خيام مصنوعة من حصر النخيل • فاذا انتقلوا بخيامهم حملوها على ظهور الثيران • أما سائر الناس فيسكنون فى قرى دائمة فى كثير أو قليل ، حيث تبنى الأكواخ من القش • على أنهم يحرقون هذه الأكواخ الضعيفة عند الحاجة ويرحلون مع قطعانهم فى الليل بحثا عن مراع جديدة • ذلك أنهم يملكون مساحات شاسعة من الأراضى فى كل مكان • وتنتشر بين قبيلة « بوجو » عادة حق الابن الأكبر فى الارث ، فالابن الأكبر هو عميد الأسرة ، كما أن زعامة القبيلة تنتقل من خلاله جيلا بعد جيل ، بل انه ينظر اليه بحق بوصفه شيئا مقدسا لا يجوز أن تنتهك حرمته ، وهو يعد ملكا وان كان لا يملك بهـاء الملوكيـة • فاذا توفى الأب قسمت التركة بحيث يحصل الابن الاكبر على أفضل نصيب بما فى ذلك البقر الأبيض ذو القيمة الغالية ، وأثاث البيت كله وسائر المتاع المنزلى • وبعد ذلك يرث الابن الأصغر البيت نفسـه

خاليا • واذا توفى ملك « النويرين » وهم شعب يسكن عند النيل الأبيض ويعيش على الرعى ، ورث الابن الأصغر الحكم من بعده • أما عند قبيلة « سوك » ، وهى قبيلة تسكن فى شرق أفريقيا البريطانى ، فان الابن الأكبر يرث معظم ممتلكات أبيه ، فى حين يرث الابن الأصغر معظم متلكات أمه • ويبدو أن « السوكيين » كانوا فى الأصل شعبا زراعيا صرفا ، ثم انقسموا فى عصر متأخر الى قسمين : قسم اشتغل بالزراعة والآخر بالرعى وكلاهما يتبع العادة السالفة فى الارث ، كما تتبعها قبيلة « توركانا » ، وهى قبيلة أخرى تسكن فى هذا الاقليم نفسه •

وتنتشر عادة حق الابن الأصغر فى الارث بين بعض « الايبو » ، وهم شعب يشتغل بالزراعة فى جنوب نيجيريا • والشىء الغريب حقا عند هؤلاء ، أن حق الابن الأصغر فى الارث يقتصر على ما تمتلكه الأم ، وليس له حق فى ممتلكات الأب • ولكن العادة حتى فى هذه الصورة المحدودة ، تعد استثناء وليس قاعدة •

٧ ــ أصل عادة حق الابن الأصغر فى الارث :

اذا ألقينا نظرة على الشواهد السابقة التى تشير الى عادة حق الابن الأصغر كما صادفتنا بين قبائل آسيا وافريقيا ، فاننا ننتهى الى أن هذه العادة تنتشر بين الشعوب الزراعية كما تنتشر بين الشعوب الرعوية • حقا ان غالبية القبائل التى تتبع عادة حق الابن الاصغر فى الارث تعيش أساسا على الزراعة ، ولكن نظام الزراعة الذى يقوم على الهجرة وهو الذى يتبعه هؤلاء ، نظام مضياع ، فضلا على أنه يتطلب مساحات من الأرض تفوق الحصر لا تكفى هذه الشعوب وفقا للنظام الذى يتبعونه فى حياتهم • فما ان يكبر الأبناء ، حتى يتركوا بيت الأسرة ، ويمهدون مساحة من الأرض فى الأحراش أو الغابات ليزرعوها • ولا يبقى فى بيت الأسرة بعد ذلك سوى الابن الأصغر الذى يعول والديه بطبيعة الحال ، ويرعاهما فى شيخوختهما • ويبدو أن هذا

التفسير هو أبسط التفسيرات وأكثرها احتمالا ، على الأقل فيما يختص بحقوق الابن الاصغر • ويؤكد هذا التفسير تلك العـادة التى يتبعها الزارعون الروس اليوم ، فهم يفضلون الابن الأصـغر فى الارث • ويفسرون هذا التفضيل على نحو ما شرحناه • وترتبط هذه العادة عندهم بوراثة الابن الأصغر لبيت الأسرة فى الغالب • فارثه لبيت الأسرة يعد حقا شرعيا له وان لم يرث سواه • وهو حق طبيعى وعادل اذا كان هو الذى يتخلف فى بيت الأسرة ويظل يسكنه حتى وفاة والديه •

وهذا الأساس نفسه يصلح أن يكون تفسيرا لعادة الانتساب الى الام ، وخلافة الابنة الصغرى لها فى زعامة الأسرة ، تلك العادة التى تتبعها بعض القبائل مثل قبيلتى « خاسى » و « جارو » • فالابنة الصغرى هى آخر من يتزوج من البنات بطبيعة الحال ، بل انها تمنع من الزواج بحق عند بعض القبائل ، ومن بينها قبيلة « جارو » ، قبل أن تتزوج سائر أخوتها • ومن الطبيعى بناء على ذلك ، أنها تمكث مع والديها مدة أطول من تلك التى تمكثها اخواتها ، وتصبح عزاء والديها وسلوتهما فى شيخوختهما ، كما تصبح وريثة لهما بعد وفاتها • وحتى ان بقيت البنات الأخريات فى بيت الأسرة بعد زواجهن ، كما يحـدث بين قبيلة « خاسى » فيما يبدو ، فان رعاية أسرهن تستغرق كل وقتهن بالضرورة ، بحيث لا يكون لديهن متسع من الوقت لرعاية أبويهن • ومن ثم يبدو أن تفضيل الابنة الصغرى بالارث فى هذه الحالة كذلك ، ليس بالأمر غير الطبيعى •

وتتضح عادة حق الابن الاصغر فى الارث أكثر من ذلك ، كما لاحظ « بلاكستون » هذا منذ زمن طويل ، بين القبائل الرعوية • فمسـاحة المقاطعة الشاسعة التى يعيش فى نطاقها البـدو والرعاة أو أصحاب القطعان ، تتيح للابناء عندما يكبرون أن يخرجوا الى الحياة ويتجولوا بقطعانهم وماشيتهم ، بينما يظل الابن الأصغر آخر الأمر مع أبويه فيعولهما ويرعاها فى هرمهما ثم يرث ممتلكات أبيه عندما يتوفى • وعلاقة

الأب بأبنائه فى القبائل البدوية تسمح حقا بتفضيل الأب لابنه الاصغر على سائر أخوته • وقد كتب « بورخارت » الذى كان قد ألف حيـاة البدو ، حول هذا الموضوع فقال : « ان الخلافات اليومية التى تنشأ بين الأبوين وأولادهما تمثل أسوأ ملامح الحياة البدوية • فعندما يصل الابن الى سن البلوغ يسأل أباه بزهو أن يمنحه أى عدد من رءوس الماشية حيث أنه فى وسعه أن يحصل بساعديه على ما يبتغيه ، وهو يعتقد بهذا أن أباه لزم بأن يحقق له مأربه • أمـا الأب ، من ناحية أخـرى فيستاء لسلوك أبنائه المتغطرسين نحوه ، ومن ثم تنشأ الخلافات بينه وبينهم • وتتسع هوة هذه الخلافات فى العادة بحيث تصعب معالجتها • وعند ذاك ينتزع الابن الشاب نفسه من سلطة أبيه ، اذا أستطاع ذلك محتفظا له ببعض الاعتبار طالما كان يعيش معه فى خيمة واحدة • ولكنه متى استطاع أن يكون سيد الخيمة ، (وهو الأمر الذى يظل يسعى اليه) فانه عند ذاك لا يستمع لنصيحة ناصح ، اللهم الا الى صوت ارادته • أما الابن الذى لم يصل الى سن البلوغ بعد ، فيبدى الاحترام لابيه ألا يحاول الأكل معه فى طبق واحد ، بله أن يأكل أمامه • وانها لتعد جريمة شنعاء عندما يقول أحد الافراد : « انظر الى هذا الابن كيف يلتهم الاكل فى حضرة أبيه » • أما أصغر الأبناء الذى لم يكن قـد تجاوز سنه الرابعة أو الخامسة فيدعى لتناول الطعام مع والديه ، وأن يأكل معهما من طبق واحد » • وهنا نلاحظ كما سبق أن رأينا فى أمثلة أخرى كثيرة ، أن نقطة التحول فى علاقة الأب بابنه تبدأ من اللحظـة التى يهجر فيها الابن بيت والديه ليعيش فى مسكن مستقل • وطبيعى أن تلك الرغبة المتغطرسة فى الاستقلال ، تلك التى يبديها الابن البدوى لأبيه منذ اللحظة التى يبرح فيها الابن خيمة والديه ، تحول عنه عاطفة الأب وتدفعه لأن يحرم هذا الابن المتكبر العنيد الذى استقل عنه ، من التركة ، وأن يورث كل ما يملكه لابنه الأصغر المخنوع الذى احتـرم رغبته وبقى معه فى خيمته • حقا ان العرب يقسمون الآن التركة بين أبنائهم الذكور بالتساوى وفقا للتشريع الاسلامى ، ولكنهم ربما كانوا

قبل ظهور الاسلام ، يستجيبون لنزواتهم الطبيعية ، ويحرمون الابن الاكبر من التركة ارضاء للابن الاصغر •

وبناء على ذلك ، فان الظروف التى دعت الى نشأة عادة حق الابن الاصغر فى الارث سواء فى المرحلة الرعوية أو الزراعية التى يعيش فيها مجتمع من المجتمعات ، هى وجود مساحات شاسعة من الاراضى مع قلة عدد السكان • فلما لم يعد من السهل للأبناء أن ينفصلوا عن الأسرة ، وأن ينشروا فى أرضهم طولا وعرضا ، اما بسبب ازدياد السكان أو لأى سبب آخر ، فان حق الابن الأصغر الكلى فى الارث أصبح عرضة لأن ينازعه فيه اخوته الكبار ، كما أصبح عرضة لأن يعطل ، بل أن تحل محله عادة حق الابن الاكبر فى الارث ، كما يحدث اليوم بين قبيلة « لوشاى » فى «أسام» • وعلى الرغم من ذلك ،فربما استمرت العادة القديمة فى الانتشار بدافع تأثيرها المتوارث ، وان اختفت ظروف الحياة التى نشأت فى كنفها • فلا تزال عادة حق الابن الأصغر فى الإرث تعيش أو كانت تعيش جنبا الى جنب مع عادة حق الابن الأكبر فى الأرث فى جهات غير قليلة من انجلترا • فاذا عدنا الآن الى النقطة التى بدأنا منها بحثنا حول هذا الموضوع ، أمكننا أن ندرك السبب فى أن بعض آثار عادة حق الابن الأصغر فى الارث كان من المحتم أن تعيش بين العبريين القدماء بعد أن هجرها هذا الشعب بزمن طويل واستبدلوا بها عادة حق الابن الأكبر فى الارث ، وذلك بعد أن عاش حياة الزراعة المستقرة فى فلسطين بعد أن كان شعبا راعيا متجولا فى الصحراء • وقد تعجب المؤرخ الذى يدون تاريخه فى عصر متأخر ، عندما كانت عادة حق الابن الأصغر فى الارث قد نسيت فيه تماما ، تعجب من أن يجد تراثا مرويا يحكى عن وراثة أصغر الابناء لتركة آبائهم دون الأخوة الكبار • وقد حاول أن يفسر هذه الاحوال التى كانت بعيدة عن مفهومه فى نظام الارث ، فقدم هذه الاحوال بوصفها شواذ ترجع الى مجموعة من الأسباب العريضة ، كان تصاحب ولادة الابن الأصغر حادثة معينة

أو تفضيل الأب التعسفى له ، أو أنها ترجع الى جشع الابن الاصغر ومكره • وبناء على وجهة النظر هذه ، فان يعقوب لم يرتكب أى اساءة فى حق أخيه الاكبر « عيسو » ، وإنما شاء أن يثبت لنفسه حقـــه فى الارث الذى كان القانون القديم يمنحه بصفة عامة لأصغر الأبناء ، لولا بدعة غزت مجتمعه فى عصره ونقلت هذا الحق فى أصغر الأبنـــاء الى أكبـــرهم •